

البنت التي لا تحب اسمها

دار الآداب مكتبة 487

مكتبة | 487

البنت التي لا تحبّ اسمها

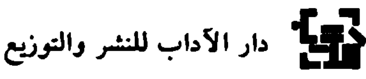
البنت التي لا تحبّ اسمها

أليف شافاك / روائيَّة تركيَّة

الطبعة الأولى عام 2019

الطبعة الثانية عام 2019

ISBN 978-9953-89-655-7



دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

 /Daraladab  @Daraladab  daraladab.com

أليف شافاك

البنت التي لا تحبّ اسمها

ترجمة: نورا ياماتش

رواية


دار الآداب ـ بيروت

المحتويات

الفتاةُ الَّتي لا تحبُّ اسمَها

كانَتْ هناكَ فتاةٌ تعيشُ في الدَّورِ الثالثِ مِن عِمارةٍ زرقاءَ، في حيٍّ واسعٍ لِمدينةٍ كبيرةٍ. لم تكن قامتُها طويلةً ولا قصيرةً. أمَّا شعرُها، فكان أصهبَ، يصفَرُّ في فصلِ الصيفِ، ليعودَ أحمرَ في فصلِ الخريفِ. نعم... ربَّما كانتْ نحيفةً، إلَّا أنَّها لم تكن هزيلةً. وجهُها دائريٌّ، وعيناها عسليَّتان.

كانت هذه الفتاةُ تَهوى قراءةَ الكُتُبِ، وسماعَ الموسيقى، والرسمَ، واللَّعِبَ بالكُرةِ، والقفزَ على الحَبْلِ، إضافةً إلى صُنعِ كعكةِ الشوكولاتةِ.

أمَّا لعبتُها المفضَّلة، والتي كانتْ تلعبُها وحدَها، فهي تَخيُّلُ أشكالٍ مألوفةٍ مِنَ الغيومِ التي تُزيِّنُ السماءَ.

كانتِ الغيمةُ تشبهُ حَلَزُونًا ضخمًا أحيانًا، وزرافةً أحيانًا

أُخرى، بينما كانتْ تشبهُ خُبزًا مُحَمَّصًا تارةً، وتارةً أخرى مثلَّجاتٍ تذوبُ في وعائِها المصنوعِ مِنَ الرقائِقِ.

أَحَبُّ الحيواناتِ إلى قلبِها هي: القططُ والكلابُ والماعزُ والأحصنةُ والسناجبُ المخطَّطَةُ. في الحقيقةِ، لم يسبِقْ لها أن رأتْ سِنجابًا مخطَّطًا في حياتِها، وليكنْ... فقد كانتْ تحبُّها، بحيثُ كانتْ جدرانُ غرفتِها مليئةً بصُوَرٍ للسِّنجابِ المخطَّطِ.

كم تمنَّتْ مُنذُ صِغرِها أن تمتلِكَ قِطًّا، أو كلبًا، أو ماعِزًا، أو حصانًا، لكنَّ أمَّها السيِّدةَ «خيالَ» كانتْ تقولُ لها في كلِّ مرَّةٍ: «مستحيلٌ، هذا غيرُ ممكنٍ».

وتُضيفُ:

ـ «شَعْرُ القطِّ يتساقطُ، ولديَّ حساسيَّةٌ تِجاهَه. والكلبُ ينبَحُ. كما أنَّ ثُغاءَ الماعزِ يُزعجُ الجيرانَ. أمَّا الحصانُ، فليس لدينا مكانٌ نُؤْويه فيه».

ـ «لكنِّي، يا أمِّي، أريدُ أنْ أمتلِكَ حيوانًا، وأعتنيَ به!».

ـ «تعتنينَ بها عندما نذهبُ إلى حديقةِ الحيواناتِ!».

ـ «لكنْ، ممنوعٌ! أصلًا، أريدُ أن يكونَ لي حيوانٌ خاصٌّ بي».

وأخيرًا، في هذه السنةِ، أهداها أبوها السيِّدُ حسنُ سُلَحْفاتَينِ مائِيَّتَينِ. كانتْ تعتني بهما داخلَ وعاءٍ دائريٍّ زُجاجيٍّ، فوقَ الطاولةِ، سمَّتهما: الليلَ والنهارَ، إلَّا أنَّ مِنَ الصعوبةِ التمييزَ بينَ الليلِ والنهارِ مِن شِدَّةِ شَبَهِهما، إحداهُما بالأُخرى.

كانت فتاةً فضوليَّةً، تقرأُ موسوعةَ الحيواناتِ مِنَ البدايةِ حتَّى النهايةِ. لقد عرفَتْ في إحدى المرَّاتِ أنَّ السلاحفَ تأكُلُ الدِّيدانَ، فَخرجتْ يومًا بعد هُطولِ المطرِ وحفرتِ الترابَ وجمعتِ العديدَ مِنَ الديدانِ. بعضُها قصيرٌ وبعضُها طويلٌ مِثلُ المعكرونةِ. ملأَتْها في قارورةٍ وأخذَتْها إلى البيتِ.

ـ «اُنظُري، يا أمِّي، لقد جمعتُ طعامًا للَّيلِ والنهارِ».

غيرَ أنَّ السيِّدةَ «خيالَ» فرَّت وهي تصرُخُ: «يا إلٰهي، هيَّا أَخرِجي تلك المخلوقاتِ المُخيفةَ مِن هنا». ومُنذُ ذلك الوقتِ لم تُحْضِرِ الديدانَ واكتفتْ بإطعامِ السلاحفِ مِن طعامِها الخاصِّ. كما كانتْ تُعطيها أقراصَ الكالسيومِ لتَقْوى صَدَفَتُها، لأنَّها لا تستطيعُ حمايةَ نفسِها إن لم تَكُنْ أصدافُها قويَّةً. ومَن يدري، لعلَّ الأمرَ كذلك للنّاسِ أيضًا. نعم... ليس لديهم أصدافٌ، إلَّا أنَّه يجبُ عليهم أن يكونوا أقوياءَ تجاهَ صُعوباتِ الحياةِ.

إضافةً إلى محبَّتِها للحيواناتِ، كانتْ تحبُّ الرياضةَ، وخُصوصًا كُرةَ السلَّةِ وكُرةَ اليدِ، معَ اهتمامِها بكُرةِ القدمِ. كانوا يقولون إنَّ كُرةَ القدمِ ليست للفتياتِ، إلَّا أنَّه كان لديها ألبومٌ في غرفتِها يحتوي على صُوَرٍ للاعبي كُرةِ القدمِ، كما كانتْ تعلمُ عددَ الأهدافِ التي سجَّلَها كلٌّ لاعبٍ، ومتى، وكم مرَّةً فازَ كلُّ فريقٍ مِن فِرَقِ كُرَةِ القدمِ. كانتْ تعرفُ ذلك كلَّه أكثرَ مِن أيِّ ولدٍ في صفِّها.

وممَّا كانتْ تفضِّلُه منَ الفاكهةِ: التفّاحُ واليوسفيُّ والبِطّيخُ؛ ومِن الألوانِ: الأحمرُ والبنفسجيُّ والأخضرُ؛ ومِنَ الفصولِ: الشتاءُ والربيعُ. أكثرُ حلوّى تحبُّها حلوى الحليبِ بالأرُزِّ المَطبوخَةُ بالفرنِ، وأفضلُ المشروباتِ عصيرُ اللّيمونِ. الغريبُ في الأمرِ أنّه كان هناكَ شيءٌ واحدٌ، وهو الشيءُ الوحيدُ الَّذي لا تحبُّه على الإطلاقِ، وهو اسمُها!!!

كان اسمُها لا يُعجبُها، بل كانتْ تخجَلُ مِنه. وكانت تُردِّدُ على الدوامِ: ليتَ كان لي اسمٌ مختلِفٌ، مِثلُ بِهارَ، ابنةِ خالتِها، أو مِثلُ أسماءِ بناتِ البقّال ذواتِ النَّمَشِ في وجوهِهنَّ: ليلى وسلمى وجنى.. أو حتَّى مِثلُ أسماءِ صديقاتِها في المدرسةِ: أروى، أسماءَ، عائشةَ، بيضاءَ، خديجةَ، إسراءَ، آلاءَ، مروى، كُبرى، مريمَ، فاطمةَ، مروى، طوبى وزينبَ. ما أكثرَ الأسماءَ في هذا العالمِ. كلُّها أسماءٌ

سهلةٌ، وكلُّ اسم أجملُ مِنَ الآخرِ... وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ أباها وأمَّها تركا كلَّ هذه الأسماءِ، ولم يجدا إلَّا هذا الاسمَ لها. ليتَهما وَضعا اسمًا مركَّبًا معه. لا... حتَّى هذا غَفِلا عنه. ولْيَكُنْ... لو أنَّهما وَضعا لها كُنْيَةً، فمعظمُ الأولادِ في المدرسةِ لديهم كُنى، مِثلُ المحبوبِ، والمُسلِّي، إلَّا هي ليس لها ولا حتَّى كُنيةٌ، لأنَّ اسمَها كان غريبًا أصلًا، وكانَ تلفُّظُه يُشْبِهُ الكُنْيَةَ المُضحِكةَ.

في يومٍ مِنَ الأيّام، وبينما كان والِدُها يقرأُ الصحيفةَ وهو جالسٌ إلى مائدةِ الفطورِ، شدَّ انتباهَها خبرٌ في الصفحةِ الخلفيَّةِ. كان مقالًا يتحدَّثُ عَنِ الأسماءِ الغريبةِ التي وَضعها المُغَنُّون ونجومُ الأفلامِ لأولادِهم. وبذلك علِمتْ بأنَّ هناكَ أُناسًا غيرَها في العالمِ يملِكونَ أسماءً غريبةً مِثلَها، مثلَ اسم دُرّاقٍ، وتفّاحٍ، وتِينٍ، وبُلبلٍ، ومُحيطٍ، والملاكِ الأزرقِ، وسُكَّرِ النباتِ...

ما هو شعورُهم، يا تُرى؟ كيف سيشعرون في المُستقبلِ عندما يُنادِيهم أحدُهم بـ: سيِّد مُحيط، أو سيِّدة بُلبل؟!

على الرَّغم من ذلك، فإنَّ هذه الأسماءَ غيرَ المألوفةِ لم تَكُنْ صعبةً لَها، مِثلَ اسمِها، لأنَّ اسمَها كان تمامًا بهذا الشكلِ: زهرة الساردونيا.

سألت أمَّها في إحدى المرَّاتِ:

ـ «أمّي، كيف خطرَ في بالِكم أن تُسمُّوني اسمًا كَهذا؟».

أجابتها أمُّها حينَئذٍ:

ـ «ما أجملَه مِن اسمٍ. إنَّه اسمُ زهرةٍ يا بُنيَّتي، ولا فرقَ بينه وبين أسماءِ الأزهارِ الأخرى، مَثلِ: اللُّوتُسِ والنَّرْجِسِ والتوليبِ والبَنَفْسجِ».

ـ «لكنْ، لا أحدَ يسخَرُ مِن تلك الأسماءِ. أمَّا اسمي فالجميعُ يسخَرُ منه».

«أنتِ تتوهَّمين هذا. ولِمَ يسخَرون؟ فالجميعُ يحبُّ الأزهارَ. نُقطةٌ، انتهى».

كانت السيِّدةُ خيالُ تقولُ: «نُقطةٌ، انتهى» عندما تريدُ إغلاقَ الموضوعِ تمامًا. تنهَّدَتْ ساردونيا التي كانتْ تعرفُ هذا الأمرَ... يا إلٰهي... مِنَ الصعبِ شرحُ بعضِ الأمورِ للبالِغين.

كانت قد قرأت في الموسوعةِ مرَّةً أنّ هناكَ نبتةً تُسمَّى ساردونيا، بحيثُ كان اسمُها اللّاتينيُّ أكثرَ غرابةً «بيلاغونيوم بيلتوتوم». أمَّا ألوانُ أزهارِها فقد كانتْ بيضاءَ، أو ورديَّةً، أو صفراءَ، أو حمراءَ. ووطنُها الأُمُّ أفريقيا الجنوبيَّةُ. تنبتُ في

الأصيصِ وتتفتَّحُ أزهارُها طوالَ السنةِ، وتُوضَعُ أمامَ النوافذِ أو في الشُّرفةِ، وتفوحُ مِن أوراقها رائحةٌ غريبةٌ تشبهُ رائحةَ اللّيمونِ. بفضل هذه الرائحةِ لا تستطيعُ الحشراتُ أوِ الذبابُ الاقترابَ مِنها.

كانت قد أطالَتِ النظرَ إلى صُورةِ النبتةِ. في الحقيقة، أعجبَها ما رأَتْه. فقد كانتْ نبتةً جميلةً ومميَّزةً. ومعَ ذلكَ، لم تقتنعْ باسمِها. بما أنَّ أباها وأمَّها أصرّا على تسميتِها باسمِ وردةٍ ما، فلِمَ لمْ يختارا اسمَ «زهرة» أو «ياسمين»؟؟!!

كان في القِصص، وخُصوصًا في الرواياتِ المُصوَّرةِ التي قرأَتْها، كثيرٌ مِن الأسماءِ الغريبةِ لأبطالِها. طبعًا في الرسومِ المتحرِّكةِ كذلك. لم يكن هذا الأمرُ يسبِّبُ مشكلةً لها، لأنَّها في الأصلِ كانتْ في عالمٍ خياليٍّ. ولم يكن أحدٌ يسخَرُ مِنَ الآخرِ بسببِ اسمِه الغريبِ. فالحكاياتُ مليئةٌ بالأسماءِ الغريبةِ، مِثلِ: «تينكربيل»، «رالف» أو «هالك». لكنْ، لم تكنْ ساردونيا شخصيَّةً في روايةٍ، ولا بطلةً لفيلمٍ، وإنّما كانتْ فتاةً تَعيشُ في حيٍّ هادئٍ في إسطنبول. وكانَ التلاميذُ يسخَرون منها في المدرسةِ. فكُلّما تقرأُ المعلِّمةُ اسمَها في أثناءِ التفقُّدِ اليوميِّ، كانتِ الفتاةُ المسكينةُ تذوبُ خجلًا.

ـ «كريم؟»

ـ «موجودٌ، يا معلِّمتي».

ـ «بيان؟» مكتبة t.me/ktabrwaya

ـ موجودة، يا معلِّمتي.

ـ ساردونيا؟

عندما يأتي دورُها، وتذكُرُ المعلِّمةُ اسمَها، يصيحُ الأولادُ جميعًا، وبصوتٍ واحدٍ: «في الأصيصِ!!».

في هذه الأوقاتِ، تُشرِفُ ساردونيا على البكاءِ فتحبِسُ دموعَها، وكم تتمنّى لو تبتعدُ عنِ المكانِ كلَّ البُعدِ. وطبعًا، لم تكنْ تفعلُ هذا لأنَّها كانتْ فتاةً مهذَّبةً. وبدلًا مِن ذلكَ، تُطَأطِئُ رأسَها وتجلِسُ في مَقْعَدِها بهدوءٍ.

كان الأولادُ المشاغبونَ في صفِّها قَدْ أَلَّفوا أغنيةً يردِّدونها دائِمًا.

تَهطُلُ الأمطارُ... تَجري الأنهارُ...

ها هي ساردونيا... مِنَ النافِذةِ تنظُرُ...

السيولُ جارفةٌ... أغرقتِ الزوارقَ...

ساردونيا في الأصيصِ... مِنَ الماء تَسْتَقي...

كانوا يردِّدونَ هذه الأغنيةَ كلَّما هطَلَ المطَرُ. ما الَّذي

يمكنُ أن تفعلَه ساردونيا في هذا الوضعِ؟ لا شيءَ. ومهما فعلتْ، فَبِلا جَدْوى. . .

كانت في بعضِ الأحيانِ ترافقُ إحدى التلميذاتِ. تتجوَّلُ معها في الاستراحاتِ، وتلتقيانِ وقتَ الطعامِ، وتتشاركانِ في كلِّ شيءٍ. بعد عِدَّةِ أيَّام تُمْضيانها معًا متَّفِقَتَينِ، تَجدُ ساردونيا أنَّ صديقتَها الجديدةَ أيضًا بدأت تسخَرُ مِن اسمِها، أو تضحَكُ خِفْيَةً كلَّما ذكَرَه أحَدٌ، فينكسِرُ قلبُها كثيرًا وتحزَنُ.

ليستْ هذه هي الصداقةَ الحقيقيَّةَ. هل مِنَ المعقولِ أن يسخَرَ الشَّخصُ بصديقِه لِيُقلِّدَ الآخرينَ؟! ثم تقولُ في نفسِها: «ألعَبُ بمفردي خيرٌ لي مِن أن يكونَ لي صديقٌ وصديقةٌ مزيَّفان». وكانت تمرُّ بِأوقاتٍ تشعُرُ كأنَّها وحيدةٌ في العالَمِ.

صادفَتْ مرَّةً قولًا في أحدِ الكُتُبِ التي قرأتْها، وهو: «لِكلِّ شخصٍ على وَجهِ الأرضِ شبيهٌ في الفضاءِ. فكلُّ ما يقومُ به الإنسانُ على وَجهِ الأرضِ، يقومُ به شبيهُه الموجودُ في الفضاءِ. فمثلًا، عندما تبكي أنتَ هنا يبكي توأمُك هناكَ، وعندما تضحَكُ أنتَ هنا يضحَكُ توأمُكَ هناكَ». هذا الأمرُ كان قد أثارَ اهتمامَها، فبدأتْ تتأمَّلُ السماءَ عدَّةَ ليالٍ متتاليةٍ. كانتْ تعرِفُ أنَّ النجومَ بعيدةٌ جدًّا، ومعَ ذلكَ كانتْ تأمُلُ رؤيةَ فتاةٍ تعرِفُها في البعيدِ البعيدِ منَ السماءِ. ساردونيا فضائيَّةٌ تشبِهُها، لكنَّ لونَها أخضرُ مِثلُ الحرباءِ، وأذنيها كبيرتانِ،

وعينيها تُضيئانِ وتَنطفئانِ مِثلَ المِصباحِ.

بعدَ مدَّةٍ، تخلَّت عنِ التفكيرِ في أمورٍ كهذه. في الحقيقةِ، لم تَكنْ تتوقَّعُ وجودَ فتاةٍ مِثلِها تُشبِهُها، حتَّى ولو كانتْ فضائيَّةً مِثلَها. فهناكَ ساردونيا واحدةٌ في هذا العالَمِ الفسيحِ، وهي ساردونيا هذه، ليسَ غيرُها.

هِيَ الطفلةُ الوحيدةُ التي تمتلِكُ أغربَ اسمٍ في هذا العالَمِ الكبيرِ.

لا تُحِبُّ اسمَها بتاتًا وقطعيًّا.

عقلٌ طفوليٌّ

كانت ساردونيا قَدِ اشتكَتْ عدَّةَ مرَّاتٍ إلى أبيها وأمِّها من موضوعِ اسمِها. لكنْ، معَ الأسفِ، لَم يأخُذا الموضوعَ على مَحْمَلِ الجِدِّ. وما الغريبُ في هذا، فإمكانيَّةُ الكلامِ معَ الكِبارِ بوضوحٍ كإمكانيَّةِ هُطولِ الثلوجِ في شهرِ آبَ. فردودُ أفعالِ الكِبارِ على المواضيعِ التي لا يرغبونَ في سماعِها تكونُ إمَّا بالتجاهلِ، وإمَّا بالابتسامِ وتغييرِ الموضوعِ. وأحيانًا يغضبونَ ويُؤَنِّبوننا، فيُنْهُون الموضوعَ تمامًا.

سألتْ ساردونيا أمَّها قبلَ سنواتٍ، عندما كانَ عمرُها أربعَ أو خمسَ سنواتٍ، ولم تكنْ تذهبُ إلى المدرسةِ بعدُ آنذاكَ، إلَّا أنَّها شعرتْ بأنَّ اسمَها سيُسبِّب لها مشكلةً في المستقبلِ:

ـ «ما رأيُك، يا أمّي، في أنْ نبحثَ عن اسمٍ جديدٍ لي؟!».

أجابتها أمُّها السيِّدةُ خيالُ آنذاكَ، وقد عقدتْ حاجبَيها الرَّفيعَيْنِ:

ـ «ولِماذا يا بُنيَّتي؟ وهل يكرَهُ الإنسانُ اسمَه؟ هذا مُخجِلٌ جدًّا. لا أريدُ أنْ أسمَعَ هذا مرَّةً أخرى، وإلَّا فسيحزَنُ اسمُك مِنكِ».

سألَتْها ساردونيا بِقلَقٍ:

ـ «يحزَنُ مِنّي؟!»

ـ «بالتأكيدِ. ستبقَيْنَ بدونِ اسمٍ، فلا يستطيعُ أحدٌ مناداتَكِ، ولا يعرفونَ كيفَ يَدعونَكِ، أو سينادونَك بهذا الشكلِ: «هِيْ، أنتِ، انظُري». وسيلتفِتُ الجميعُ حينئذٍ ويَنْظُرُونَ لأنَّه ليس هناكَ شخصٌ مُخاطَبٌ إلَّاكِ مسمًّى بـ «أنتِ»، ولا أحدَ يتحدَّثُ عن نفسِه إلّا ويقولُ: «أنا».

ـ «أمّي، إنَّك تشوِّشينَ أفكاري».

ـ «هذا ما قصدتُه بالضبطِ. فإنْ لم تستخدمي اسمَك فستتشوَّشُ أفكارُك. إيَّاكِ، يا بُنيَّتي، أن تُحزِني اسمَك. نُقطةٌ، انتهى».

كان كلُّ شيءٍ في هذهِ الحياةِ بالنسبةِ إلى السيِّدةِ خيالَ

يمتلِكُ مشاعِرَ ويتأثَّرُ بالوقائعِ. فالماءُ المتروكُ في الكأسِ يَبكي، والملابسُ غيرُ الملبوسَةِ تَغضَبُ، والأشياءُ المكسورةُ والمَرْمِيَّةُ في القُمامَةِ تستاءُ. وكذا، إنْ لَمْ تُحِبَّ هديَّةً جاءَتْكَ في عيدِ ميلادِكَ (حتَّى لو أخفيتَ عدمَ إعجابِكَ بها)، تَحزَنِ الملائِكةُ لِذلك، ولن تُقدِّمَ إليكَ هديَّةً بعدَ ذلكَ.

إن لم تُنجزي واجباتِك في وَقْتِها تَستَأْ دروسُك مِنكِ، ولن تنجَحي في صفِّك. وكذا الزيُّ المدرسيُّ، إن لم يُطْوَ كلَّ ليلةٍ يَحْزَنْ.

لِهذا السببِ كانتِ السيِّدةُ خيالُ تُصِرُّ على ابنتِها، في كلِّ مرَّةٍ تجلسُ فيها إلى المائدةِ، أن تُنهِيَ الطعامَ في طَبَقِها:

«اِحذَري أن تترُكي الأرُزَّ في الطَّبَقِ، وإلّا فستبكي حبّاتُ الأرُزِّ وراءَكِ».

في إحدى المرَّاتِ، أثارَ هذا الأمرُ فضولَ ساردونيا، فسألت أمَّها: «أمّي، هل يَدُقُّ قلبُ الخُضَرِ بعدَ طبخِها؟ وهل تقرقرُ مَعِدَةُ الشطائرِ التي خرجَتْ مِنَ الفُرنِ للتوّ؟ وهل تسمَعُ أُذنا الذُّرَة المسلوقةِ؟»

ـ «ما هذا الكلامُ، يا عزيزتي؟»

ـ «يعني: هل يتألَّمُ الخبزُ إنْ أخذتُ قضمةً مِنه؟ أو تَتَأذّى حبّاتُ اللَّحمِ الموجودةُ في شطائرِ اللَّحمِ إن مَضَغْتُها؟

وهل تخجَلُ التفّاحةُ عندما أُقشِّرُها؟

ـ لا، طبعًا، يا بُنيَّتي، ما هذا الهُراءُ!

ـ إذن، لِماذا تقولينَ لي باستمرارٍ إنَّ الطعامَ يبكي مِن ورائِي؟ ما دامَتْ لا توجَدُ رُوحٌ لهذه الأطعمةِ، وما دامتْ بلا مشاعرَ، فكيف يمكنُها أن تبكيَ؟!

صُدِمَتِ الأُمُّ مِن كلام ابنتِها، وتجمَّدَتْ للحظاتٍ لا تعرفُ كيف يمكنُها الإجابةُ. ثمَّ ابتسمتِ ابتسامةً لطيفةً وقالت: «ما ألطَفَكِ يا ساردونيا! هيّا، لا تجادليني... يا لَعَقْلِ الأطفالِ».

الكِبارُ يردِّدون هذه الكلمةَ كثيرًا. لا، إذن، لا بدَّ من أنَّ هناكَ شيئًا يُسمَّى «عقلَ الأطفالِ». حسنًا... وماذا عَنِ المراهقينَ، فابنةُ خالتِها بِهارُ كانتْ في الثالثةَ عَشَرةَ مِن عمرِها. كان يجبُ أن يكونَ هناكَ «عقلُ المراهقينَ»... وكذا الشبابُ. كان لا بدَّ من أن يكونَ هناكَ شيءٌ يسمَّى «عقلَ الشبابِ»، وكذا مَن هُم في سِنٍّ متوسِّطةٍ، فيُقالُ آنذاكَ «عقلُ ذَوِي الأعمارِ المتوسِّطةِ». كما أنَّ هناكَ متقاعِدينَ، وحينَها يُقالُ «عقلُ المتقاعِدينَ». وكذلكَ يُقالُ للعجائِزِ «عقلُ العجائزِ». حسنًا... ولكنَّ الأطفالَ لا يُشبهُ بعضُهم بعضًا. فابنُ الجيرانِ فرقان كان في عمرِها نفسِه، إلّا أنَّه كان مُشاغبًا ويُصدِرُ ضجيجًا باستمرارٍ، بحيثُ كان يلعَبُ بالكُرةِ في

البيتِ، ومشاكِسًا يربطُ أذيالَ القططِ بالعُلَب دائمًا. لكنَّ ساردونيا كانتْ مُتأكِّدةً من أنَّ عقلَها يعمَلُ بشكلٍ مختلفٍ عن عقلِ هذا الولدِ، لأنَّ فرقان كان منشغلًا بالمشاكسةِ لا غير. أمَّا ساردونيا فكانت مُؤدَّبةً ومهذَّبةً.

كانت ساردونيا لا تفهمُ لِماذا تردِّدُ أمُّها هذه الكلماتِ باستمرارٍ. إنْ لَمْ تدرُسي تستَأْ دروسُك، وإنْ لَمْ تأكُلي يحزَنْ طعامُك، وإنْ لَمْ تَدْعي ضيوفًا إلى بيتِك يحزَنِ الجيرانُ. وعندما تذهبين للزيارةِ تسبِّبينَ الحزنَ لِصاحبِ البيتِ إن لَمْ تأكُلي كلَّ ما يُقدَّم إليكِ...

وكأنَّها تَخْشى أن يستاءَ أو يحزَنَ أحدٌ منها، لِذلك تبقى على حَذَرٍ باستمرارٍ... هل، يا تُرى، لِهذا السببِ تَستخدمُ كلَّ يومٍ أحمرَ الشفاهِ نفسَه، وتُسرِّحُ شعرَها بالطريقةِ نفسِها؟ هل تَخشى أن تستاءَ منها مستلزماتُ التجميلِ وملابسُها؟

لم تُرِدْ ساردونيا أن تُحزِنَ اسمَها. ولم تكن لِتكسرَ قلبَ أيِّ شخصٍ كانَ لأنَّها طيِّبةُ القلبِ ورقيقةٌ. لكنَّها لا تُحبُّ اسمَها، فماذا تفعلُ؟ لا تُحبُّ. لِماذا يُقْبِلُ الكِبارُ على تَسميةِ أولادِهم باسمِ كلِّ ما يخطرُ في بالِهم؟ كانتْ تتعجَّبُ مِن تصرُّفات الكِبارِ. لِماذا لا يستشيرُ أحدٌ الصِّغارَ؟ لم يَكنْ مِنَ المعقولِ أن يتدخَّلَ الإنسانُ في موضوعِ اسمِه الَّذي سيحملُه طوالَ حياتِه.

فكَّرَتْ كثيرًا في هذا الموضوعِ. نعم، ربَّما كان لا بدَّ مِن تسميةِ الأطفالِ منذُ ولادتِهم. لكِنْ، كان يجبُ أن يتحدَّثَ الأطفالُ مع والِدَيهم ويختاروا أسماءَهم بعدَ أن يكبُروا ويتعلَّموا القراءةَ والكتابةَ. وإلى ذلك الوقتِ، كان مِنَ الممكن للوالِدَين أن ينادِيا أولادَهما بكلماتٍ بسيطةٍ، وليست كلماتٍ فظّةً، مِثلَ: أنتَ تعالَ، وإجلسْ يا صغيرُ. لم تكنْ هذه الكلماتُ محبَّبةً بالنسبةِ إلى ساردونيا. فمِنَ الممكنِ أن يُسَمَّوا بكلماتٍ ألطفَ وأرقَّ؛ بكلماتٍ تُناسبُ الشخصَ المُسمَّى مثلًا.

فلا مانِعَ أبدًا مِن أن يَدْعوا ولدًا أزرقَ العينين بـ «ذي العينين الزرقاوَينِ»، والولدَ الَّذي غطّى خدَّيه النّمشُ بـ «منمِّشٍ»، ويدْعوا ذا الشعرِ المُجعَّدِ بـ «مُجعِّدٍ»، وذا الصوتِ الجميلِ بـ «الصوتِ المُخمليِّ». كما أنَّه يمكنُهم أن يَدْعوا الفتاةَ الرفيعةَ بـ «رَهفَ»، وغيرُها الكثيرُ مِن الألقابِ، طبعًا لِمدّةٍ مُوَقَّتةٍ فقط. بعد ذلكَ، سيجلِسُ هذا الولدُ معَ والِدَيه ومعَ الكِبارِ في العائلةِ، ثمَّ يتناقشون في الاسمِ الَّذي سيحمِلُه هذا الولدُ. وهكذا لن يكونَ أحدٌ تعيسًا.

كانت ساردونيا تَحلُمُ بكوكبٍ يختارُ فيه كلُّ إنسانٍ اسمَه بحرِّيَةٍ. هل يوجدُ مكانٌ كهذا، يا تُرى؟ كانتْ تعلَمُ بأنَّها لو حاولتْ أن تسألَ أمَّها هذا السؤالَ، فستضحكُ أمُّها وتقولُ: «عقلُ أطفالٍ، لا غيرُ!».

في المدرسة

كانت أيَّامُ الجُمعةِ تَمضي بسرعةٍ في المدرسةِ، حيثُ كانتْ تُعطى، بالتدريجِ، الدروسُ الأخيرةُ؛ العلومُ واللُّغةُ التركيَّةُ والحسابُ والرياضةُ. ينصرفُ التلاميذُ بعدَ ذلك بالزيِّ الرياضيِّ. مِنهُم مَن يأتي والدُهُ أو والِدتُه لأخذِه، والبعضُ الآخرُ يعودُ معَ أصدقائِه مشيًا. أمّا الآخرونَ، فيعودونَ في حافلةِ المدرسةِ. لم يكن بيتُ ساردونيا قريبًا مِن مدرستِها، لِذلك كانتْ بينَ التلاميذِ الَّذين يركَبونَ الحافلةَ المدرسيَّةَ.

كانَ أَحَبَّ الدروسِ إليها درسُ العلومِ، وخصوصًا الدروسَ التي تتحدَّثُ عَنِ «الأرضِ»، «السماءِ»، «القمرِ» و«الأحياءِ مِن حولنا»... كم كانَ جميلًا الحصولُ على معلوماتٍ عن دولٍ وأماكِنَ بعيدةٍ ومختلفةٍ. ما أكبرَ العالَمَ!

في الحقيقةِ، كان يبدو صغيرًا في الخريطةِ المعلَّقةِ على الجدارِ.

كانتْ ساردونيا معجَبةً بكرويَّةِ الأرضِ. جيِّدٌ أنَّها ليست مثلَّثةَ الشكلِ أو مستطيلةً، أو مخمَّسةَ الشكلِ أو ذاتَ تسعِ زوايا. مِن حُسنِ الحظِّ أنَّ شكلَها لم يكن موشوريًّا. ولِحُسنِ الحظِّ أيضًا أنْ ليسَ لها زوايا حادَّةٌ.

فمِنَ السهولةِ احتضانُ الأرضِ وهي كرويَّةُ الشكلِ. وكلُّ مكانٍ فيها يبعُدُ البُعدَ نفسَه عنِ الأماكنِ الأخرى. وكذا، مِنَ الممكنِ على الإنسانِ أن يقطَعَ كلَّ المسافاتِ، سواءٌ أكان مشيًا في البرِّ، أم سِباحةً في البحرِ. كما أنَّه يمكنُك، إن كنتَ طائرًا، أن تطيرَ مِن جهةٍ إلى الجهةِ المقابلةِ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ. تستريحُ عندما تتعبُ، وتتبادَلُ أطرافَ الحديثِ معَ الطيورِ الأُخرى.

قبل سنتَين أهداها والدُها أطلسًا في عيدِ ميلادِها. ومنذُ ذلكَ اليومِ كانَ أَحَبَّ ما تمتلكُه. لا تتركُه أبدًا فترةَ وجودِها في البيتِ، وتأخذُه إلى المدرسةِ بين الحينِ والآخرِ. تقلِّبُ صفحاتِه كلَّما سنحتْ لها الفرصةُ بين الدروسِ، وفي الاستراحاتِ. رسمتْ أعلامَ جميعِ الدُّولِ، ولوَّنَتْها، واحدًا واحدًا. وحفِظَتْ أسماءَ عواصمِها. إضافةً إلى ذلك، كانتْ تستطيعُ أن تُحصيَ معظمَ دولِ أميركا الجنوبيَّةِ وأفريقيا وآسيا

وهي مغمَضةُ العينَينِ. كما كانتْ ترغبُ في زيارةِ تلك البلادِ الأجنبيَّةِ عندما تكبُرُ. لِحُسنِ الحظِّ أنَّه لا داعيَ لِتكونَ طائرًا كي تستطيعَ أن تقومَ برحلةٍ حولَ العالَمِ.

كانت ساردونيا تعرفُ خريطةَ تركيا جيِّدًا أيضًا، بحيثُ كانتْ تُجيب بسرعةٍ عن كلِّ سؤالٍ تُسألُه، كالأسئلةِ عن أنواعِ الخُضَرِ التي تنبتُ في كلِّ منطقةٍ، وكذا عن مناخِ المدنِ في الشتاءِ والصيفِ، فيما إذا كانتْ باردةً شتاءً ومعتدلةً صيفًا. ما أكثرَ الجَماليّاتِ الطبيعيَّةِ في تركيا، مِنَ البحارِ والجبالِ والغاباتِ والأنهارِ. معَ الأسفِ، هناكَ كثيرونَ مِن الناسِ لا يعرفونَ قيمةَ الطبيعةِ، ولا يحترمونَ البيئةَ.

كانت ساردونيا تريدُ أن تنظِّمَ حملةً في المدرسةِ للمحافظةِ على الخُضْرةِ. كان هذا حُلُمًا كبيرًا بالنسبةِ إليها. إلَّا أنَّها كانتْ تتردَّدُ خوفًا مِنَ استهزاءِ الأولادِ منها. قد تتساءلونَ: ولِماذا هذا الخوفُ؟! طبعًا بسببِ اسمِها. فمِنَ الصعوبةِ أن يقومَ شخصٌ، اسمُه «زهرةُ الساردونيا»، بحَمْلةٍ لِحمايةِ الأشجارِ والنباتاتِ. كانتْ متأكِّدةً مِن سُخريةِ الأَولادِ المشاكسينَ مِن هذا الأمرِ، وسيضحَكونَ قائلين:

ـ خيرًا، يا ساردونيا! نراكِ قد بدأتِ بحمْلةٍ لحمايةِ شبيهتِك مِن النباتاتِ.

كانت معلِّمةُ العلومِ السيِّدةُ ليلى تحبُّ ساردونيا كثيرًا. وكانت تُجيبُ عن أسئلةِ تلميذتِها المتحمِّسةِ والفضوليَّةِ بكلِّ حبٍّ وصبرٍ. هي الوحيدةُ التي كانتْ تُنادي اسمَ «زهرة الساردونيا»، كما هو. أمَّا بقيَّةُ المعلِّمينَ والمعلِّماتِ فكانوا يَدْعونها إمَّا «زهرة» وإمَّا «ساردونيا»، لكنَّ المعلِّمةَ ليلى لم تَكن تفعلُ ذلكَ على الإطلاقِ. طبعًا كان التلاميذُ يُدركون هذا الأمرَ جيِّدًا، فلا أحدَ يجرؤُ على السُّخريةِ مِن اسمِ ساردونيا.

كانتِ المعلِّمةُ في هذا الدرسِ تتحدَّثُ عن الدوَلِ. عندما بدأتِ الاستراحةُ، التفتتْ إلى الأولادِ مبتسمةً: «نعم، هل هناكَ أيُّ سؤالٍ؟».

كانتِ المعلِّمةُ ليلى، كما هي عليه دائمًا، تتحدَّثُ بصوتٍ رقيقٍ، وتُشجِّعُ التلاميذَ على الكلام. وكانت مِن أفضلِ المُعلِّمينَ في المدرسةِ. «هيَّا، ليَسألْ مَن لَديه سؤالٌ. لا داعيَ للخجلِ».

رفعتْ ساردونيا يدَها، فقد كان هناكَ أمرٌ يشغلُ فكرَها.

المعلِّمة ليلى:

ـ «تفضَّلي. أنا أسمعُك».

ـ لِماذا نُسمِّي اليابانَ بالشرقِ الأقصى، يا معلِّمتي؟!

ضَحِكَ الأولادُ المُشاغبونَ الَّذين يجلسونَ في الخلفِ.

ردَّتِ المعلِّمةُ ليلى:

ـ «توقَّفوا عن الضَّحِكِ. إنَّه سؤالٌ منطقيٌّ».

ثمَّ التفتَتْ إلى زهرةِ الساردونيا وأجابَتْها بلطفٍ:

ـ «لأنَّها تَقَعُ في مكانٍ بعيدٍ جدًّا مِن الشرقِ».

ـ «لكنَّ اليابانَ قريبةٌ بالنسبةِ إلى مَن يعيشُ في الصِّينِ. وهي، بالنِّسبةِ إلى مَن يعيشُ في أستراليا، في الشمالِ الأقصى، وليستْ في الشرقِ الأقصى».

هزَّتِ السيِّدةُ ليلى رأسَها قائلةً:

ـ صحيحٌ. إنَّه استنتاجٌ صائبٌ. أحسنتِ. فنحن نفهمُ كلَّ شيءٍ كما نراه مِن وِجهتِنا، معَ أنَّنا لَسنا في مركزِ الأرضِ، وليس هناكَ أحدٌ في المركزِ. فالمكانُ «البعيدُ» و«القريبُ» و«الشمالُ» و«الجنوبُ»؛ كلٌّ هذه الأماكنِ تختلفُ، بحسْبِ الناظرِ إليها.

ابتسمتْ زهرةُ الساردونيا لِمعلِّمتِها باحترام، ثمَّ عادتا إلى الدرسِ مِن جديدٍ. تابعتِ السيِّدةُ ليلى شرحَ الدرسِ باهتمام. أمَّا ساردونيا، فكانت قد دوَّنَتْ ملاحظاتِها على دفترِها بلهفةٍ. كالعادةِ، وكما يحدُثُ دائمًا، تعبِسُ ساردونيا كلَّما قُرِعَ

الجَرسُ في درسِ العلومِ. ليتَ هذا الدرسَ لا ينتهي أبدًا. ليتَه يدومُ طويلًا.

مرَّ درسُ اللُّغةِ التركيَّةِ هادِئًا. دخلت معلِّمةٌ أُخرى الصَّفَّ لأنَّ المعلِّمةَ سلمى كانتْ مريضةً. قرأَ كلُّ تلميذٍ مِنَ التلاميذِ نصًّا مِنَ الكتابِ وكَتبَ أفكارَه الرئيسَةَ في دفترِه، ثمّ جاءَ موعِدُ درسِ الحسابِ.

كانت ساردونيا سعيدةً في درسِ العلومِ. كانتْ تثِقُ بنفسِها، لكنَّ الوضعَ كان مختلفًا تمامًا في درسِ الحسابِ. على العكسِ، كانتْ تجدُ صعوبةً في هذا الدرسِ، ليسَ لأنَّها لا تحبُّ الأرقامَ، بل كانتْ تحبُّها، لكنَّها، لسببٍ مجهولٍ، يشرُدُ ذهنُها في درسِ الحسابِ دائمًا: إمَّا تبدأُ في الغوصِ في الأحلامِ، وإمّا تَمَلُّ، وإمّا تشعُرُ بالنُّعاسِ. واليومَ أيضًا، حَدَثَ الشيءُ نفسُه. لم تستطعْ أن تجمَعَ أفكارَها بتاتًا.

كان الأستاذُ سنان أشدَّ الأساتذةِ التزامًا بالنِّظامِ في المدرسةِ، وكان الجميعُ يخافونَ منهُ. وحتَّى المعلِّمونَ الآخرونَ أيضًا، والقِطَطُ في الحديقةِ، وطيورُ النورسِ في السَّماءِ.

كان السيِّدُ سنان قصيرَ القامةِ، بدينًا، ممتلِئَ الوجهِ. يطرِفُ عينيه مِن خلفِ نظّارَتِه ذاتِ الإطارِ العريضِ

والزجاجتينِ السميكتينِ. وكان يُعتبَرُ أصلعَ، إذ كان يمشِّطُ الشَّعَرَ القليلَ الموجودَ في رأسِه مِنَ اليمينِ إلى اليسارِ كي يُخفِيَ صَلعتَهُ.

كلَّما شرحَ السيِّدُ سِنان شيئًا على السَّبُّورة يعطِسُ باستمرارٍ لأنَّه كان يعاني الحساسيَّةَ تجاهَ أشياءٍ كثيرةٍ، وعلى رأسِها غُبارُ الطباشيرِ. وكلَّما عَطَسُ السيِّدُ سنان كان الأولادُ جميعًا يقولونَ بصوتٍ واحدٍ: «لِيَرْحَمْكُمُ اللهُ... يا معلِّمَنا». ويردُّ عليهِمُ السيِّدُ سنان غاضبًا: «يَكْفِي... يَكْفِي... لا داعِيَ لذلك». لكنَّه بعدَ دقيقتينِ يعطِسُ مجدَّدًا، ويصرُخُ الأولادُ مُجدَّدًا: «لِيَرْحَمْكُمُ اللهُ... يا معلِّمَنا».

إلَّا أنَّ المعلِّمَ سنان كان قد أخذَ تدبيرَه، في هذا اليومِ، بحيثُ رَبَطَ قُماشًا مُرَقَّطًا لِيَقِيَ نفسَه مِن غُبارِ الطباشيرِ. كان قد غطَّى فمَه وأنفَه. لِذلك، كان صوتُه غريبًا بعضَ الشيءِ.

«هيَّا، لِيَفتَحِ الجميعُ دفاترَهم! لا أريدُ أيَّ حَرَكةٍ أو صوتٍ! أَهذا مفهومٌ؟ الكلامُ ممنوعٌ. الهَمْسُ فيما بينَكم ممنوعٌ. المُشاغَبةُ ممنوعةٌ. المشاكَسةُ ممنوعةٌ. الكَسَلُ ممنوعٌ. هيَّا اكتُبوا ما أكتُبُه على السَّبُّورةِ، هيَّا... هيَّا».

تَنَهَّدَتْ ساردونيا وبدأَتْ تقرِضُ أسفلَ قلمِها كالفأرِ. بعدَ قليلٍ، انْتَبَهَتْ إلى حقيبتِها التي وضعَتْها على الأرضِ. كانتْ

قد أَحضرتِ الأطلسَ معها هذا اليومَ. لم تتحمَّلْ، فأخرجَتْهُ مِن حقيبتِها خِفْيَةً، ووَضَعَتْه على رُكبتيها. بدأتْ تُقَلِّبُ صفحاتِهِ مِن جهةٍ، وتنظُرُ إلى المعلِّمِ مِن جهةٍ أخرى. فتحتْ خريطةَ اليابانِ. كانتْ دولةً في الشرقِ الأقصى بالنسبةِ إلى بعضِ الدولِ، وفي الشمالِ الأقصى بالنسبةِ إلى دولٍ أُخرى.

«هابشووووو».

واضحٌ أنَّ هذا المنديلَ لَم ينفَعْ. وطبعًا، جاءَهُ الردُّ بصوتٍ عالٍ: «لِيَرْحَمْكُمُ اللهُ، يا أستاذَنا».

ـ «يَـكْـفِـي... يَـكْـفِـي... لا داعِـيَ لـذلـك... هاهاهاااابشووو».

لَقَدْ عطَسَ السيِّدُ سنان أكثرَ مِنَ المُعتادِ حتَّى تَوَرَّدَ لَوْنُ خَدَّيْهِ وجبينِهِ. كَتَبَ مسألةً على السَّبُّورة بسرعةٍ، ورمى الطباشيرَ على الجدارِ، ثمَّ قالَ:

ـ «مَن يعرِفُ جوابَ هذا السؤالِ؟ هيَّا أجيبوا. لَقَدْ ساءَتْ صحَّتي وأنا أحاولُ أن أشرحَ لكمُ الدرسَ».

على عَجَلٍ، رفعَ بعضُ الأولادِ أيديَهُمْ. عمومًا، الأولادُ أنفسُهُمْ هُمُ الَّذين يرفعونَ أيديَهُم في كلِّ مرَّةٍ في درسِ الحسابِ. وكان الأستاذُ يعطي حقَّ التكلُّمِ للأشخاصِ أنفسِهِم. أمَّا هذه المرَّةَ، ولسببٍ ما، فَقَدْ نظرَ الأستاذُ سنان

مِن فوقِ منديلِه نظراتٍ خافتةً إلى الصفوفِ الخلفيَّةِ، ثمَّ أشارَ إلى زهرةِ الساردونيا:

ـ «أنتِ، يا ذاتَ الشعرِ الطويلِ! ما اسمُك؟ كان اسمَ زَهْرَةٍ أو ما شابَهَهُ».

ـ أجابَ جميعُ الأولادِ وهم يضحكونَ، وبصوتٍ عالٍ: «زهرةُ الساردونيا، يا أستاذ».

وبَّخَ السيِّدُ سنان الجميعَ قائلًا: «حسنًا، يَكْفي، لا داعِيَ للمَهْزَلَةِ. هيَّا، أَجيبي أيَّتُها الزهرةُ».

نظرتْ ساردونيا حولَها في اضطرابٍ، فَهِي لم تنتبهْ حتّى للسُّؤالِ.

ـ «العفوُ يا معلِّمي، لَقَدْ شرَد ذهني لحظةً، فهل مِنَ المُمكنِ إعادةُ السُّؤالِ».

كان جبينُ السيِّدِ سنان وَرْدِيَّ اللَّوْنِ، إلَّا أنَّه احمَرَّ لِشدَّةِ غَضَبِه، وبدأ بالكلامِ:

ـ «ماذا؟ لَقَدْ شرَدَ ذهنُها! أنا أُعاني هنا لأشرَحَ لكُمُ الدرسَ، لكنْ هل هناكَ مَن يُقدِّرُ؟ لا، طبعًا. لِماذا لا تستمعينَ، يا بُنيَّتي؟ لِماذا تُحزنينَني؟ هل أنا مَن أحتاجُ إلى هذه المعلوماتِ؟ لاااا!. أنا أعرِفُها أصلًا. أنتم مَن تحتاجونَ

إليها؛ أنتم. فإنْ لَم تستَمِعوا إلى الدرسِ الآنَ تَكُنْ نتيجتُكم صِفْرًا في الامتحانِ؛ صِفْرًا كبيرًا».

ثمَّ أشارَ بأصابِعِه الأرْبَعِ، السَّبّابتَيْنِ والإبهامَيْن، بيدَيه الاثنتَيْنِ، وشكَّلَ بها دائرةً، ثم وضعَ أصابعَه، في شكلِها ذاك، على عينيه كالنظّارةِ، وكرَّر قائلًا: «صِفْرٌ».

تَنَهَّدتْ ساردونيا في ضِيقٍ، لَعَلَّ المعلِّمَ سيطلُبُ منها أن تعودَ لِتجلِسَ في مكانِها.

لكنَّ الأمرَ لم يكن كذلك. تابعَ السيِّدُ سنان كلامَه بسؤالٍ آخَرَ:

ـ «هيَّا أَخْبِرينا أينَ شرَدَ ذهنُك؟ أين كان عقلُكِ؟».

فجأةً، أجابتْ ساردونيا قائلةً: «في اليابانِ». ثمَّ أغلَقَتْ فَمَها بيدِها. يا إلٰهي، لقد أَفْلَتَتِ الكَلِمَةُ مِن فمِها.

وتعالَتْ أصواتُ الضَّحِكِ.

فقالتَ ساردونيا: «أنا آسفةٌ».

لكنَّ الأستاذَ لم يسمَع اعتذارَها، وقالَ: «اليابانُ، إذن. سيكونُ واجبُك المنزليُّ أكثرَ مِنَ الباقينَ، جَزاءً لكِ. وإلَّا فلْيكُنْ في علمِك أنَّك سترسبينَ في الامتحانِ».

ارتفعتْ أصواتُ الضَّحِكاتِ مِن جديدٍ.

أجابتْ ساردونيا: «حسنًا، أستاذي».

طَأْطَأَتْ رأسَها، ونظرتْ إلى الأطلسِ الَّذي سقطَ على الأرضِ بعينينِ ممتلِئَتَينِ. ليتَها كانتْ في بلدٍ غيرِ هذا البلدِ. ليتَها تجري معَ الفِيَلَةِ والزرافاتِ والحميرِ الوحشيَّةِ... ليتَها كانتْ في أميركا الجنوبيَّةِ تُربِّي حيوانَ اللّاما... ليتَها كانتْ تُطاردُ ظِباءَ الصحراءِ في آسيا... أو أنَّها في أنتارتِيكا تَلْعَبُ الكُرةَ معَ الفُقْماتِ... ليتَها تدخُلُ في الأطلسِ وتتجوَّلُ في العالَمِ بدلًا مِن أن تسمَعَ توبيخَ الأستاذِ لها بينَ الجميعِ...

سِرُّ المَنْزِلِ

رَكِبَتْ ساردونيا الحافِلَةَ المَدْرَسِيَّةَ كالعادةِ بعدَ أنِ انتهى درسُ الرياضةِ، وانصرَفَ الأولادُ. كانتِ المقاعِدُ الأُولى قدِ امتلأَتْ، لذلك مَشَتْ نحوَ الخلفِ. عندما رآها فوّازٌ، الوَلَدُ المُشاكسُ الَّذي يجلِسُ في المقاعدِ الوُسطى، بدأَ بالغِناءِ:

تَهطُلُ الأمطارُ... تَجري الأنهارُ...

ها هي ساردونيا... مِنَ النافِذةِ تنظُرُ...

تجاهَلَتْ ساردونيا كلامَه، فَقَدْ كان بعضُ الأولادِ يقومونَ بذلك. يحاولونَ إزعاجَ الآخرينَ دائمًا؛ يَتَلَفَّظونَ ألفاظًا فَظَّةً. ومِنَ المَنْطِقِيِّ تجاهُلُ هؤلاءِ الأشخاصِ.

تقدَّمَتْ نحوَ المَقْعَدِ الخَلْفِيِّ وكان فارِغًا. جلستْ أمامَ

النافذةِ، وأسندَتْ وَجْهَها إلى الزُّجاجِ تنظُرُ إلى الخارجِ. انطلقَتِ الحافلةُ بعد بُرهةٍ. رأتِ المُشاةَ والسيَّاراتِ، والبيوتَ والقِطَطَ والكلابَ وطيورَ النورسِ. ما أكثَرَ الحياةَ حولَنا! ما الَّذي يفكِّرُ فيه كلُّ هؤلاءِ الناسِ، يا تُرى؟ هذا الطفلُ بائعُ المَناديلِ؟ والعَجوزُ بائعُ الكَعْكِ؟ وهذهِ المَرأةُ الجميلةُ الحسناءُ التي تسيرُ على عَجَلٍ؟

ثم بدأَتْ تفكِّرُ في أبيها وأمِّها. ما الَّذي يَفْعلانِه الآنَ، يا تُرى؟ فقدْ كانا طيِّبَيِ القَلْبِ، مَليئَينِ بالحُبِّ. كانتْ ساردونيا تُحِبُّ عائلتَها كثيرًا. ليتَها كانتْ تستطيعُ أن تُبدِّلَ بعضَ الأمورِ في عائلتِها. فأمُّها في قَلَقٍ مُستمرٍّ، وأبوها شاردُ الذِّهنِ. كما كان عقلُ أمِّها مليئًا بالمَخاوفِ والقَلَقِ على أعمالِ أبيها. وكانتْ ساردونيا ابنتَهما الوحيدةَ. لعلَّهما لا يريدانِ ولدًا آخَرَ. ولعلَّهما أرادا، لكنْ لَم يُرْزَقا طِفلًا آخَرَ. لم تَكُنْ ساردونيا لِتَجْرُؤَ على سُؤالِهما هذا السُّؤالَ، ولو مَرَّةً واحدةً.

كان في حَمّامِ بيتِها كيسٌ كبيرٌ مِنَ القُماشِ يُشْبِهُ الدُّبَّ القُطْبِيَّ. أطلقَتْ ساردونيا على الكيسِ اسمَ «كيسِ الأسئلةِ المَمْنُوعةِ». فكلَّما خَطَرَ في بالِها سُؤالٌ، وتَرَدَّدَتْ في طَرحِه على أَبَوَيها، تَرْمِيهِ في هذا الكيسِ. وكان هذا الكيسُ قَدِ انتفَخَ مِن كَثرَةِ الأسئلةِ التي ألقَتْها فيه. في الحقيقةِ، كانتْ أحيانًا لا تستطيعُ مُقاوَمَةَ ضَبْطِ لسانِها، فتُخرِجُ مِنَ الكيسِ

أَحَدَ الأسئلةِ التي يَجِبُ ألَّا تُسأَلَ، وتسألُ: «أمِّي، كم عمرُك الآنَ بالضَّبْطِ؟» أَوْ: «أَظُنُّ أنَّ وَزْنَك قَدِ ازدادَ قليلًا، يا أمِّي. كم وزْنُك الآنَ؟». ماذا يُمكنُها أن تفعلَ؟ لقد كانتْ فتاةً فُضولِيَّةً، كما أنَّ الطُّفولةَ تعني أن يكونَ الشخصُ فُضوليًّا، أليسَ كذلك؟

كانتْ ساردونيا تشعرُ بالسعادةِ أحيانًا لأنَّها البنتُ الوحيدةُ، وأحيانًا أخرى تشكو مِن هذا الوَضعِ. إلَّا أنَّ كثيرًا مِنَ العائلاتِ التي تعرِفُها، لها عددٌ مِن الأولادِ أيضًا، وكان البعضُ مِنهم سعيدًا في وَضْعِه، والبعضُ الآخَرُ يشكو مِن حالِه. وهذا يعني أنَّهُم متشابِهون.

كانَتْ سعِيدةً لأنَّها تملِكُ غُرفةً خاصَّةً بها، وليستْ مُضطَرَّةً إلى مُشارَكَةِ أحدٍ في لُعَبِها وكُتُبِها، وحتَّى في سُلَحْفاتِها. إلَّا أنَّها كانتْ تُعاني الوَحْدةَ بينَ الحينِ والآخَرِ. أليس مِن الجَميلِ أن يكونَ لها أخٌ أو أختٌ؟ أو حتَّى صديقٌ قريبٌ؟ لم يَكُنْ يُسمَحُ لها باللَّعِبِ في الحيِّ معَ أولادِ الحيِّ، أَوِ الذَّهابِ إلى بيتِ أَحَدِ الجيرانِ للَّعِبِ معَ أولادِه. لِهذا السببِ لم تَكُنْ لديها عَلاقةٌ حميمةٌ بأحدٍ. ولا تَرْغَبُ في اللَّعِب معَ الأولادِ الأَشْقِياءِ، كابنِ جيرانِهم في الطابقِ السُّفْلِيِّ. كان هناكَ كثيرٌ مِن الأولادِ في الحيِّ، وكانوا طيِّبي القلوبِ ومَحْبوبينَ، وكانَتْ تَتَشَوَّقُ إلى التَّعَرُّفِ إليهِم. وكم

كانتْ تَتَمَنَّى لو أنَّها تستطيعُ أن تُقيمَ صداقةً مَعَهُم، لكنَّ أمَّها لم تكنْ تسمَحُ لها بذلك، معَ الأسفِ. وَقَدْ سَأَلَتْها مَرَّةً:

ـ «أمِّي... أَلَمْ تكوني تَلْعَبينَ في الخارجِ في صِغَرِكِ؟ لِمَ لا أقومُ بذلكَ أنا أيضًا؟».

أجابَتْها أمُّها السيِّدةُ خيالُ:

ـ «كان الوضعُ مختلفًا في زمانِنا. فعندما كنتُ صغيرةً، كانتِ السيَّاراتُ التي تَمُرُّ في الحيِّ مَعْدُودةً، لكنِ الآنَ لا تتوقَّفُ المَرْكَباتُ، سواءٌ أكانتْ حافلاتٍ، أمْ سيَّاراتٍ، أمْ حتَّى درَّاجاتٍ ناريَّةً... لقدْ تغيَّرَ الزمنُ كثيرًا. لقدْ ساءَ كلُّ شيءٍ. في الماضي، كنَّا نقطعُ الطماطمَ فتفوحُ رائحتُها الجميلةُ. لم نَعُدْ نجدُ ذلك الآنَ! لم نَعُدْ نَجِدُ طماطمَ تفوحُ منها رائحةُ الطماطمِ، بل إنَّ رائحتَها كرائحةِ التِّبْنِ».

لم تفهَمْ ساردونيا العَلاقةَ بينَ السؤالِ الَّذي سألَتْه والجوابِ الَّذي حصلَتْ عليه.

ـ «لكِنِّي لا أريدُ الطماطمَ، يا أمِّي... أريدُ أصدقاءَ ألعَبُ معَهم».

ـ «حسنًا، يا ابنتي، وهذا ما قصدتُه بكلامي تمامًا. فكمَا أنَّنا لم نعدْ نجدُ طماطمَ تفوحُ منها رائحةُ الطماطمِ، كذلك لم يبقَ لَعِبٌ في الحيِّ، كما كان في الماضي. نقطةٌ، انتهى».

أدركتْ ساردونيا حِينَها أنَّ أمَّها لن تُنصِتَ إليها. لذلك، أعارتِ اهتمامَها للكُتُبِ. فالكُتُبُ كانتْ أقربَ صديقٍ إليها منذُ طفولتِها. كانتِ الرواياتُ والحكاياتُ والشِّعْرُ مِنَ الكُتُبِ المفضَّلَةِ لَديها. كان هناكَ الكثيرُ مِن الكُتُبِ في بيتِها. ومعَ ذلكَ، كانتْ تستعير كُتُبًا مِن مكتبةِ المدرسةِ بانتِظامٍ، تقرأُها وتُعيدُها إلى المكتبةِ في الوقتِ المحدَّد.

توقَّفتِ الحافلةُ. نظرتْ ساردونيا، وإذا بها قدْ وصلتْ إلى البيتِ. شَرَدَ ذهنُها ولم تعرِفْ كيف مضى الوقتُ بهذه السُّرعةِ. حملت حقيبتَها وتقدَّمتْ نحوَ الأمامِ لِتَنزِلَ مِنَ الحافلةِ. لِحُسنِ الحظِّ أنّ اليومَ كان يومَ الجُمعةِ، فهي تحبُّ المدرسةَ في هذا اليوم (بغضِّ النظرِ عن بعضِ الأمورِ التي لا تُحبُّها فيه)، غيرَ أنَّها كانتْ تنتظرُ العُطلةَ الأسبوعيَّةَ بفارغِ الصبرِ. فالعُطلةُ الأسبوعيَّةُ كانتْ تعني لها الخروجَ معَ أبيها للتجوُّلِ. يجلسانِ في الحديقةِ ويشاهدانِ الناسَ المتجوِّلينَ على ساحلِ البحرِ، ويأكُلانِ الحلوى والمكسَّراتِ.

يتحدَّثانِ من دونِ مَلَلٍ أو كَلَلٍ، وهذا أجملُ ما يفعلانِهِ: حديثُ البنتِ معَ أبيها.

عندما اقتربَتْ من وسَطِ الحافلةِ، مدَّ الوَلدُ المشاكسُ، فوَّازٌ، قَدَمَهُ لِعرقَلَةِ ساردونيا، التي كادَتْ تسقُطُ أرضًا لو لَمْ تتمَسَّكْ بالمَقعدِ في اللَّحظةِ الأخيرةِ، فنَجَتْ حينَها مِنَ

السقوطِ. إلَّا أنَّ جَيْبَ الملابسِ الرياضيَّة عَلِقَ في يدِ الكُرسيِّ، فتمَزَّقَ.

ضحك فوّازٌ عِندما رأى ذلك، وقالَ لها:

ـ «ستُوَبِّخُكِ أُمُّك بسببِ هذا».

صَرَخَتْ ساردونيا في وَجْهِهِ بتعجُّبٍ وغضَبٍ:

ـ «لِماذا فَعَلْتَ هذا؟»

فتحَ فوّازٌ يدَيه مُجيبًا:

ـ «وما الَّذي فَعَلْتُه؟ أنا بريءٌ».

يقطَعُ كلامَهما صَوْتُ سائقِ الحافلةِ:

ـ «هيَّا، أَلا تُريدينَ النُّزولَ؟ هل هناكَ مُشكلةٌ؟».

لم يلاحِظِ السائقُ ما حَدَثَ في الخَلْفِ. كانَ مِنَ المُمكنِ أن تَشْكُوَ ساردونيا فوّازًا، لكنَّها لم تفعَلْ ذلكَ. في الحقيقةِ، يجبُ إخبارُ المعلِّم أوِ المسؤولِ في المدرسةِ إنْ تَصَرَّفَ أيُّ طالبٍ تصرُّفًا خاطِئًا تِجاهَ طالبٍ آخَرَ.

توجَّهَتْ ساردونيا إلى البابِ مُطَأطِئَةَ الرَّأسِ وهي تُتَمتِمُ: «لَمْ يحدُثْ شيءٌ». ابتسَمَ سائقُ الحافلةِ وودَّعها قائلًا: «معَ السَّلامةِ، يا ابنتي ساردونيا».

نزلَتْ ساردونيا مِنَ الحافلةِ. التفتَتْ، وإذْ بالمُشاكسِ فوّازِ

قد أَلْصَقَ أنفَهُ بزجاجِ الحافلةِ وهو يُخرِجُ لسانَه لها. إنَّه يتصرَّفُ تصرُّفاتٍ لا تليقُ بسِنِّهِ. يتصرَّفُ بعضُ الأولادِ، وكذلك بعضُ البناتِ، تصرُّفاتِ مَن هُمْ في عُمرِ خمسِ سنواتٍ، على الرَّغمِ من أنَّ أعمارَهُمْ تخَطَّتِ الحاديةَ عَشَرةَ.

ما أصعبَ أن تكونَ طفلًا! لو كانتْ كبيرةً لَكانَ لها عَمَلٌ خاصٌّ وبيتٌ خاصٌّ بها. تذهَبُ إلى عَمَلِها بدلًا مِن أن تَذْهَبَ إلى المَدْرَسَةِ كلَّ صَباحٍ... يا لَهُ مِن أمرٍ رائعٍ. لَنْ تُضطَرَّ حينَئِذٍ إلى أن تركَبَ معَ أشخاصٍ لا تُحِبُّهم. كما أنَّه يمكنُها أن تُشاهدَ التِّلفازَ كلَّما أرادَتْ أو سَنَحَتْ لها الفُرْصَةُ، وتستطيعُ أن تنامَ متى شاءَتْ. ليس هناكَ أيُّ واجباتٍ منزليَّةٍ. حياةُ البالغينَ أَسْهَلُ كثيرًا، لكنَّهم لا يُلاحظونَ ذلكَ، لأنَّهم نسَوْا ما عانَوْهُ في طفولتِهم. لو أنَّهم يَذْكُرونَ ذلكَ لَعَرَفوا كم هم مَحْظوظونَ! لكنَّهم في تأفُّفٍ مستَمِرٍّ.

في إحدى المَرَّاتِ تحدَّثَتْ معَ أبيها في هذا الموضوعِ، فَتَبسَّمَ حينَها السيِّدُ حسن، وقالَ:

ـ «لكنَّ الذَّهابَ إلى العَمَلِ أَصْعَبُ مِن الذَّهابِ إلى المَدْرَسَةِ، يا ابنتي، فأنتِ في كلِّ يومٍ تَكْتَسِبِينَ معلوماتٍ جديدةً. تخرُجينَ في الاستراحاتِ وتلعبينَ. أمَّا الكبارُ، فكلَّ يومٍ يعمَلونَ وَفقَ النَّمَطِ نفسِهِ، بلا استراحةٍ أو لَعِبٍ. فأَنْ تكوني كبيرةً مُمِلٌّ جدًّا».

تَعَجَّبَتْ ساردونيا:

ـ «مُمِلٌّ؟!»

فأَنْ تكونَ كبيرًا يَعْني أَنَّكَ تَمْلِكُ الحُرِّيَّةَ، بالنِّسْبةِ إليها، ثمَّ سأَلَتْه: «كيف تكونُ الحُرِّيَّةُ مُمِلَّةً يا أبي؟».

أجابَها أبوها السيِّدُ حسن:

ـ «عِندمَا تكبُرِينَ سَتَعْرِفِين ذلك».

طبعًا، لم يَكُنْ هذا الكلامُ يُعجِبُ ساردونيا أيضًا. هل هذا يَعْنِي أنَّه يَجِبُ عليها أن تَنْتَظِرَ عَشْرَ سَنَواتٍ لِتَفْهَمَ شيئًا؟ لِمَ لا يشرَحونَ الأمرَ الآنَ؟

انطَلَقَتِ الحافِلَةُ كأنَّها تُصْدِرُ صوتَ سُعالٍ لشخصٍ ضَخْمٍ. وفِي طَرْفَةِ عَيْنٍ وصلتْ إلى مَدْخَلِ حيِّها. كانتْ ساردونيا تحاولُ تصليحَ المُمَزَّقِ مِن ملابِسِها بيدِها، لكنَّها لم تستطِعْ. مِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ أُمَّها سَتَغْضَبُ وتقولُ: «لقد وَصَلْتِ إلى هذا العُمْرِ، وحتَّى الآنَ لا تستطيعينَ الاهتِمامَ بملابِسِكِ».

دَخَلَتِ العِمارَةَ بخُطُواتٍ مُتعَبةٍ. كانتْ تسكُنُ في الدَّورِ الثالثِ، وكانَ هناكَ مِصعَدٌ في العِمارةِ إلَّا أنَّه كانَ كثيرًا ما يتعطَّلُ، لذلكَ تعوَّدتْ ساردونيا صُعودَ السُّلَّمِ. كانتْ تستمتعُ

بِصُعُودِ السُّلَّم دَرَجةً دَرَجةً، لأنَّها كانتْ تستطيعُ أن تتخيَّلَ القِصصَ والحِكاياتِ التي تدورُ خلف الأبوابِ المغلَقةِ.

صَعَدَتِ السُّلَّم ببطءٍ، وبدأت روائحُ الطعامِ تفوحُ كلَّما صعدتْ درَجةً: روائحُ الباذنجانِ، الفُلفلِ، الكوسا، البطاطا المَقْلِيَّةِ، اللَّبَنِ المخلوطِ بالثُّوم... والكُبَّةِ. بدأتْ عصافيرُ بطنِها تُزَقْزِقُ مِنَ الجوعِ، لأنَّها لَم تتناولْ شيئًا في الغَداءِ، فَقَدْ سُدَّتْ شهيَّتُها آنذاكَ، إلَّا أنَّها الآنَ لاحظتْ جوعَها الشديدَ.

نظرَتْ إلى الأبوابِ. كانتْ الأحذيةُ قد خُلِعتْ وصُفَّتْ في الخارجِ أمامَ أبوابِ البيوتِ. وإلى جانبِ مِصراعَيْ كلِّ بابٍ أصيصانِ مِنَ النباتاتِ. كان صوتُ المِكْنَسَةِ الكَهْربائيَّةِ صادرًا مِن شُقَّةِ جارِها فرقان. أمَّا مِنَ الشُّقَّةِ المُقابِلَةِ فكانتْ تفوحُ رائحةُ المنظِّفاتِ، بسببِ أعمالِ التَّنظيفِ في هذه البيوتِ، مِن مَسْحِ الزُّجاجِ والغُبارِ وتنظيفِ السجّادِ. فهذه الأعمالُ تُقامُ هنا على الدَّوامِ، معَ أنَّ الأزقَّةَ والشوارعَ لم تَكُنْ بهذه النظافةِ. لم تكن ساردونيا تفهَمُ هذا الأمرَ. كان الناسُ يُعِيرُون كلَّ اهتمامِهم لِلْبُيُوتِ، غَيْرَ أنَّهم لا يَعْتَنُونَ بالمَدينةِ التي يعيشونَ فيها أبدًا. يَرْمُونَ العُلَبَ الفارغةَ مِن نوافذِ السيّاراتِ، ويترُكون بقايا طعامِهم ولا يَجْمَعُونَها لِيَرمُوها في القُمامةِ. كيفَ يمكِنُهم أن يكونوا مهمِلينَ في شوارِعهم بينما هُم في قِمَّةِ النَّظافةِ في بيوتِهمْ؟! إنَّها مِن

أسرارِ الكِبار التي لَم تَسْتَطِعْ ساردونيا فَهمَها أو حَلَّها.

وصَلَتْ إلى الدَّورِ الثالثِ. تنهَّدَتْ وأخذَتْ نَفَسًا عميقًا. كانتْ تَمْتَلِكُ مِفتاحًا إلَّا أنَّها فضَّلَتْ قَرْعَ الجَرَسِ. كانتْ أمُّها تَفْتَحُ البابَ مُباشَرَةً في العادَةِ، لكنَّها تأخَّرَتْ هذه المَرَّةَ.

وبينما كانتْ ساردونيا تريدُ فَتْحَ البابِ بِمِفتاحِها فُتِحَ بهدوءٍ. رأتِ السيِّدةُ خيالُ أَمَاراتِ القلقِ على وَجْهِ ابنتِها، فاستقبَلَتْها قائلةً:

ـ «أَهْلًا وسَهْلًا بكِ يا بُنَيَّتي».

أخبرَتْ ساردونيا أُمَّها بالحقيقةِ مباشَرَةً:

ـ «لقدْ تَمَزَّقَتْ مَلابسي الرِّياضِيَّةُ».

ـ «وما المُشْكِلةُ في ذلك، قد يَحْدُثُ هذا. هيَّا اخْلَعيها لأَخِيطَها لكِ».

سألَتْها ساردونيا وهي تخلَعُ ملابسَها:

ـ «ألَمْ تغضَبي؟».

كانت أُمُّ ساردونيا شاردةَ الذِّهنِ ولَمْ تسمَعْ ما قالتْه ابنتُها، وإنَّما ذهبتْ إلى الغرفةِ الخلفيَّةِ وهي تُتَمتِمُ: «عليَّ أن أجِدَ علبةَ أسناني».

ـ «لم أتَنَاولِ الغداءَ أيضًا».

عمَّ الصمتُ المكانَ بُرهةً، ثمّ تحدَّثَتْ أمُّها مِنَ الغُرفة:

ـ «لِيَكُنْ، يا صغيرتي، تتناولينَه الآنَ».

سألتها ساردونيا مجدَّدًا:

ـ «ألمْ تغضَبي؟».

عمَّ الصَّمْتُ المكانَ مرَّةً أُخرى، ولكنَّه طالَ هذه المَرَّةَ.

أدركَتْ ساردونيا حينَئذٍ أنَّ شيئًا ما قد حَدَثَ. فإذا كانتْ أُمُّها لا تنطِقُ بكلمةٍ في المواضيعِ التي كانتْ تُغضِبُها، إضافةً إلى أنَّها لمْ توبِّخِ ابنتَها على عدمِ تناوُلِ الغداءِ، فهذا يَعْني أنَّ هناكَ شيئًا سيِّئًا قد حَدَثَ.

ما الَّذي حَدَثَ في البيتِ، يا تُرى؟ وما الَّذي تُخبِّئُه عنها أمُّها؟

رِحلةٌ مفاجِئَةٌ

حينما دَخَلَتْ ساردونيا صالةَ المَنْزِلِ، كان أبوها السيِّدُ حسن موجودًا في البَيْتِ على غيرِ العادةِ، وجالسًا على الأريكَةِ. لم تَعْتَدْ أن تَجِدَهُ في البيتِ في هذا الوَقْتِ.

كان السيِّدُ حسن جالسًا وقد وَجَّهَ نظرَه إلى الخارجِ. لم يَكُنْ يقرَأُ الصحيفةَ أو يَحُلُّ الكَلِماتِ المتقاطِعةَ، حتَّى إنَّه لم يَضَعْ نظَّارتَه. شيءٌ غريبٌ! فأبوها أنشَطُ شخصٍ تعرِفُه، ولأوَّلِ مرَّةٍ تراه يجلِسُ فارغًا من دونِ عَمَلٍ.

عندما رآها السيِّدُ حسن، قالَ لها:

ـ «أَهْلًا وَسَهْلًا يا ابنَتي، أيَّتُها الذَّكِيَّةُ العاقِلةُ. كيفَ حالُكِ؟».

اِبْتَسَمَتْ ساردونيا لأنَّ أباها كان دائمًا يَفْتَخِرُ بها. كان يلاطِفُها بالكلامِ كثيرًا، فيَسعَدُ قلبُها بِكَلِماتِه الجميلةِ. . . وأجابَتْه:

ـ «بخيرٍ».

جَلَسَتْ ساردونيا إلى جانبِ أبيها مُتَّكِئَةً على كَتِفِهِ، ثمَّ اشتَمَّتْ رائحتَه المعهودةَ. كانتْ رائحةَ معجونِ الحِلاقةِ، وقليلًا مِن رائحةِ الصابونِ. كانتِ السيِّدةُ خيالُ تشتري الصابونَ نفسَه لبيتِها، على مدى سنواتٍ طويلةٍ. فجميعُ مَن في البيتِ يَستخدمونَ صابونَ وَرَقِ الغارِ، سواءٌ أكانَ في الاسْتِحْمامِ أم في جَلْيِ أَواني المطبخِ.

ثم سألَها أبوها:

ـ «كيف مضى يومُك في المدرسةِ؟».

ـ «لَقَدْ أَعْطَتْنِي المُعَلِّمةُ ليلى دَرَجَةَ مُمْتازٍ في مادَّةِ العُلومِ».

ـ «أَحْسَنْتِ، يا ابنتي».

ـ «لكنَّ المُعَلِّمَ وَبَّخَنِي في درسِ الحسابِ».

ابْتَسَمَ السيِّدُ حسن ابتِسامةً رقيقةً، ثمَّ قالَ لها:

ـ «لا تَحْزَنِي. حتَّى المُمَيَّزونَ في الصَّفِّ قدْ يأخُذُون دَرَجَةً منخفضةً أحيانًا، وأَعْقَلُ التلاميذِ أحيانًا يُخطِئونَ في الإجابةِ. فالمَثَلُ يقولُ: «لكلِّ حِصانٍ كَبْوَةٌ، ولكلِّ فارسٍ غَفْوَةٌ».

ـ «وماذا يَعْنِي هذا؟».

ـ «هذا يَعْنِي أنَّ أحدًا لا يملِكُ علومَ كلِّ شيءٍ، فقد تكونين بارعةً في موضوعٍ ما، إلَّا أنَّ مِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ هناكَ مَن هو أَعْلَمُ منكِ».

ـ «لكنَّكَ تعرِفُ كلَّ شَيْءٍ».

ـ «أنا؟! أنا أيضًا لا أعرِفُ».

لمْ تَقْتَنِعْ ساردونيا بهذا الجوابِ، فأبوها هو أعلَمُ شَخْصٍ تعرِفُه على الإطلاقِ.

وبينما هما كذلكَ، إذ بصوتِ السيِّدةِ خيالَ يُنادي زهرةَ الساردونيا.

أجابتها ساردونيا:

ـ «نعم».

ـ «الأُمُّ لا تُجابُ بِ: نعم. يمكنُك أن تقولي: تفضَّلي يا أُمِّي».

ـ «تفضَّلي يا أُمِّي».

ـ «تعالَيْ وساعِديني في إعدادِ المائدةِ».

حَمَلَتْ ساردونيا الأطباقَ مِنَ المَطْبَخِ وَوَضَعَتْها على الطاولةِ. رتَّبَتِ الملاعِقَ والشُّوَكَ والكُؤوسَ والمَناديلَ مِن جهةٍ، وبدأَتْ تنظُرُ إلى أبيها بطرفِ عينِها مِن جهةٍ أُخرى. كانتْ تشعُرُ بأنَّ شيئًا ما قَدْ حَدَثَ، وهذا الأمرُ جَعَلَ الأفكارَ تدورُ في رأسِها.

نادَتْها أمُّها بعدَ أن خَرَجَتْ مِنَ المَطْبَخِ وفي يدِها قِدْرٌ مَليئةٌ بما طَبَخَتْه مِن طعامٍ، قائلةً:

ـ «أراكِ شَرَدْتِ مِن جديدٍ. ما الَّذي تفكِّرين فيه أيَّتُها البُومَةُ الصَّغيرةُ؟».

ـ «وما هو طائرُ البُومةِ الصغيرةِ؟».

ـ «نوعٌ مِن أنواعِ طائرِ البُومِ».

ـ «وهل يفكِّرُ؟»

أجابَتْها السيِّدةُ خيالُ: «نعم، ومن دونِ تَوَقُّفٍ».

عقدَتْ ساردونيا حاجبَيها قائلةً:

ـ «ومِن أينَ نَعْرِفُ هذا؟ لعلَّ الناسَ يَظُنُّونَ هذا. فالطيورُ

لا تَسْتَطِيعُ الكَلامَ، فكيفَ يُمْكِنُها تَوْضيحُ ذلك!!!».

ـ «لم أقصِدْ بذلك شيئًا يا ابنتي، بل ذَكَرْتُه هكذا من دونِ تَفْكِيرٍ».

أن تَذْكُرَ شيئًا هكذا من دونِ تفكيرٍ؛ هذا أيضًا مِن كَلِماتِ البالغينَ، التي ما كانتْ لِتفْهَمَها ساردونيا. فما دامَ الناسُ يَخْتارون الكَلِماتِ التي سَيَتَكلَّمونَ بها، فلماذا هناكَ كلِماتٌ تَخْرُجُ من دونِ تفكيرٍ؟ هل الكَلِماتُ تَخْرُجُ هكذا من دونِ اسْتِئْذانٍ؟ عُقِدَ لِسانُها فلم تستَطِعِ السُّؤالَ عن هذا الأَمْرِ، بَلْ خبَّأَتْ أفكارَها لِنفسِها.

وأخيرًا، أَصْبَحَتِ المائدةُ جاهِزَةً. جلسَ الجَميعُ حَوْلَها. مِنَ العادةِ أن يتحدَّثَ الجَمِيعُ وهمْ جالسونَ إلى المائدةِ. كلُّ شخصٍ يَذْكُرُ ما حَدَثَ مَعَهُ طَوالَ النهارِ، إلَّا أنَّ الصَّمْتَ، في هذه المَرَّةِ، كان يَعُمُّ المكانَ، على غيرِ العادةِ.

بعد الانتهاءِ مِن تناوُلِ الحَساءِ، نَظَرَ السيِّدُ حسن إلى السيِّدةِ خيالَ، وقالَ لها:

ـ «يجبُ أن نُخْبِرَ ابنتَنا بالأمرِ».

على الفورِ سألتْ ساردونيا:

ـ «أيُّ شَيْءٍ؟».

أزاحتِ السيِّدةُ خيالُ أطباقَ الحَساءِ جانِبًا. وبابتسامةٍ مصطَنَعةٍ أجابَتِ ابنتَها:

ـ «علينا أن نَخْرُجَ في سَفَرٍ معَ أبيك».

سألت ساردونيا على عَجَلٍ:

ـ «سَفَرٌ؟ لِماذا؟ وكيفَ؟ ومتى؟ وإلى أينَ؟».

أجابَتْها أمُّها:

ـ «سنسافرُ غدًا».

ـ «لكنَّنا كنَّا سَنَتَجوَّلُ معَ أبي».

أَمْسَكَ السيِّدُ حسن بيدِها وقالَ:

ـ «عندما أعودُ نَتَجوَّلُ. أعِدُكِ بذلك. ليستْ رِحْلَةً طويلةً. سَتَسْتَمِرُّ أسبوعًا لا أَكْثَرَ».

صَرَخَتْ زهرةُ الساردونيا:

ـ «أُسبوعٌ واحدٌ؟ هذا كثيرٌ. ولماذا لَمْ تُخْبِراني بالأمرِ مِن قبلُ؟».

ـ «نحن أيضًا لم نكن نَعْرِفُ، ولم نَعْلَمْ بالسَّفَرِ إلَّا للتَّوِّ. سَيَعْتَنِي جَدُّك وجَدَّتُك بكِ في غِيابِنا. فمنذُ فترةٍ طويلةٍ لم نزُرْهما، ولم يَرَياكِ. أنا متأكِّدٌ من أنَّهما اشتاقا إليكِ كثيرًا.

كم أنتِ محظوظةٌ لأنَّكِ سَتحظَينَ بدلالِهما المُفرِطِ».

هذا صحيحٌ، فقد كان جَدُّها وجَدَّتُها يُحِبّانِها كثيرًا. أجابتْ ساردونيا والدَيها:

ـ «لكنَّ جدِّي وجدَّتي ليسا في مِنْطَقَتِنا. إذا بقيتُ لديهما فلنْ أستطيعَ الذهابَ إلى المدرسةِ».

يا لَهُ مِن أمرٍ غريبٍ! كانتْ دائمًا تَحْسُدُ الكِبارَ لأنَّها كانتْ تشعُرُ بأنَّهم محظوظون بسببِ عَدَمِ ذهابِهم إلى المدرسةِ، حتَّى إنَّها كانتْ تتمارَضُ أحيانًا كي لا تَذْهَبَ إلى المدرسةِ. غيرَ أنَّها، الآنَ، لا تريدُ أن تَتَغَيَّبَ عن دُروسِها، ولو حتَّى يومًا واحِدًا.

ـ «لا تَقْلَقِي. لقد تحدَّثَ أبوكِ معَ المُديرِ في هذا الأمرِ، واسْتَأْذَنَ منهُ. لن يفوتَكِ إلَّا خمسةُ أيَّامٍ، نطلُبُ مِن معلِّميكِ ما فاتَكِ مِن دروسٍ، وبذلكَ تستطيعينَ تَعْويضَ ما فاتَكِ بسُرعةٍ».

كانت أمُّها تَضَعُ الطعامَ في طَبَقِها في أثناءِ إخبارِها بهذا الأمرِ. سألَتْهما ساردونيا بِقَلَقٍ:

ـ «حَسَنًا، وإلى أينَ ستُسافرانِ؟».

أجابَ السيِّدُ حسن مُبْعِدًا نَظَره عنها:

ـ «إلى خارجِ البَلَدِ».

كانت ساردونيا تعرِفُ أنَّ الكِبارَ إذا أَبْعَدُوا نَظَرَهم في أثناءِ الكلامِ فهذا يَعْني أنَّ هناكَ أمرًا ما يُخْفُونَه. ازدادَ قَلَقُها. كم أرادتْ أن تعانِقَ أباها وتقولَ له: «ليست مُشكِلةً. يمكنُك إعلامي بالأمرِ». إلَّا أنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ ذلك. خشِيَتْ أن يَفْزَعَ أبوها إن فَعَلَتْ ذلك.

كَرَّرَتْ أمُّها قائلةً:

ـ «أُسْبُوعٌ واحِدٌ، لا غيْرُ. إنَّها رِحْلَةُ عَمَلٍ لأبيك، وعَلَيَّ أن أكونَ بِرِفْقَتِه، وإلَّا لَكُنَّا اصْطَحَبْناكِ مَعَنا، لكنَّنا نَعِدُك بأنْ نَصْحَبَكِ معنا في المَرَّةِ القادِمَةِ».

ـ «حسنًا، وماذا سيحدُثُ للسُّلَحْفاتَينِ: اللَّيلِ والنَّهارِ؟ مَن سَيَعْتَنِي بهما؟».

نَظَرَ السيِّدُ حسن والسيِّدةُ خيالُ، أَحَدُهما إلى الآخَرِ. واضِحٌ أنَّ هذا الأمرَ لمْ يخطُرْ في بالِ أيٍّ مِنْهُما.

ـ «يُمْكِنُنِي أن أَضَعَهما في قارورةٍ، وآخُذَهما معي».

رَفَعَتِ السيِّدةُ خيالُ حاجبَيها، وقالَتْ:

ـ «لا يُمْكِنُ هذا، يا ابنتي. ماذا سَيَحْدُثُ إن أَكَلَ جانكوم السُّلَحْفاتَينِ؟».

جانكوم هو قِطُّ جَدَّتِها؛ قِطٌّ سَمِينٌ، بُرْتُقالِيُّ اللّونِ وكَسُولٌ. وهو مَشْهُورٌ بأنَّه يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ في فَمِه. ففي إحدى المَرَّات، قَرَضَ العُقْدَةَ المَوْجُودَةَ في حذاءِ ساردونيا. ومرَّةً، صَبَّ زُجاجةَ الحِبْرِ على الأرضِ وبدأ يلعَقُه. حتَّى إنَّ اللَّونَ الأزرقَ لم يَزَلْ في لسانِهِ شهرًا كاملًا.

هنا تدخَّلَ السيِّدُ حسن في الحَدِيثِ، وقالَ:

ـ «أمُّك على حقٍّ، كما أنّ الحيواناتِ سَتَتْعَبُ في سَفَرِك إلى بيتِ جَدَّيك».

سألت ساردونيا حينَئذٍ:

ـ «ومَن سَيَعْتَنِي بهما هنا؟».

أجابَتِ الأُمُّ:

ـ «الأَفْضَلُ أن نَتْرُكَهما عند جيرانِنا في الطابقِ السُّفْلِيِّ».

لم يُعْجِبْ ساردونيا هذا الرَّأْيُ، فهي لا تَثِقُ بابنِ جيرانِها فرقان. قد يُطْعِمُهما ذلك الطفلُ المُشاكِسُ شيئًا ضارًّا. اعْتَرَضَتْ، ولكنْ ليس هناكَ مَن يَسْمَعُها. هذا ظُلْمٌ. قرَّرَ أبَواها أمرًا من دونِ اسْتِشارَتِها مُجَدَّدًا.

عاهَدَتْ ساردونيا نَفْسَها بأنَّها عندما تَكْبُرُ وَتُصْبِحُ أُمًّا سَتُنْصِتُ إلى أولادِها دائمًا، ولَن تُسْكِتَهم بجوابٍ قصيرٍ.

أَنْهَتْ طَبقَها بصُعوبةٍ. وبمجرَّدِ إنهائِه ذَهَبَتْ إلى غُرْفَتِها، وَأَغْلَقَتِ البابَ.

كانَتْ غُرفتُها مَلْجَأَها الوَحيدَ، حيثُ كانَتْ تُمْضي أَهَمَّ أوقاتِها فيها، وخُصوصًا العُطْلَةَ الأُسبوعيَّةَ. تُلقِي نَظْرَةً على ما حَوْلَها، وترى على الرفِّ أشياءَ مُلَوَّنةً مِثلَ: دَفاترَ، قلائِدَ، سِوارٍ، مُجَسَّمٍ لحِصانٍ وكَلْبٍ، وصُوَرِ السَّناجِبِ المُخَطَّطةِ. وعلى الجدارِ تُوجَدُ صُورةٌ ذاتُ إطارٍ فِضِّيٍّ. هذه الصورةُ التَقَطَتْها العائلةُ عندما قامَتْ ساردونيا معَ أبَوَيها بزيارةٍ لِحَدِيقَةِ الحيواناتِ. أمَّا الصورةُ التي إلى جانِبِها فقَدِ التُقِطَتْ في العَرْضِ المَسْرَحِيِّ الَّذي أُقيمَ قبلَ عدَّةِ سنواتٍ. كانتْ ساردونيا أدَّتْ دَورَ الأميرةِ في ذلك العَرْضِ المَسْرَحِيِّ. وطَوالَ العَرْضِ بَقِيَتْ داخلَ بُرْجٍ تَنْتَظِرُ الأميرَ ليأتِيَ ويُنْقِذَها. دورُ الأميرِ كان أكثرَ حماسةً، فهو يَمْتَلِكُ حِصانًا وتِنِّينًا وسَيْفًا. الأميرُ هو مَن عاشَ كلَّ اللَّحظاتِ المَليئةِ بالتشويقِ والحماسَةِ. لم يَكُنْ هذا عادِلًا.

كان عَلَيْها أن تَسْتَعِدَّ للذَّهابِ إلى بَيْتِ جَدَّتِها. أَخْرَجَتْ حَقِيبَةَ السَّفَرِ الفارِغَةَ مِن خِزانَتِها. ما الَّذي يَجِبُ أن تَضَعَه في الحَقيبَةِ، يا تُرى؟ أخذَتْ دَفْتَرَ مُذَكِّراتِها أوَّلًا، فَقَدْ كانَتْ تَكْتُبُ فيهِ كُلَّما شَعَرَتْ بالوَحْدَةِ.

بعدَ ذلكَ تناوَلَتْ أَحَبَّ الكُتُبِ إليها مِنَ المَكْتَبَةِ، وهي:

«السَّمَكُ الأَسودُ الصغيرُ»، «أَلِيسْ في بلادِ العَجائبِ»، «الأميرُ السَّعيدُ»، «رِحلَةٌ حولَ العالَمِ في ثمانينَ يومًا» و«أولادُ سِكَّةِ الحَديدِ». ثمَّ اختارَتْ بعضَ الكُتُبِ مِن بعضِ السَّلاسِلِ التي قَرَأَتْها، وهي: «يَوْمِيّاتُ أحْمَقٍ»، «صَيّادو الأَسْرارِ» و«دُكّانُ الأَحْلامِ». كما وَضَعَتْ في حَقِيبَتِها قِصَصَ بعضِ الأطفالِ والأبطالِ، وقِصَصَ جُحا.

والآنَ، حانَ دورُ الرواياتِ المُصَوَّرَةِ. لم تَكُن أمُّها تَسْمَحُ لها بقِراءةِ الرواياتِ المُصَوَّرَةِ، قائلةً: «لا يَقْرَأُها إلَّا الأولادُ المُشاكِسُونَ». كانتِ السيِّدةُ خيالُ تَظُنُّ أنَّ كُلَّ الرواياتِ المُصَوَّرَةِ مليئةٌ بالأَسْلِحَةِ والقَتْلِ والضَّرْبِ، مَعَ أنَّها كانتْ تُخْفي في داخِلِها عالَمًا كبيرًا ومُمْتِعًا. كانتْ ساردونيا تُحِبُّ قراءةَ الرواياتِ المُصَوَّرةِ مُنذُ صِغَرِها. كانتِ الكَلِماتُ تبدو جميلةً برفِقْةِ الصُّوَرِ. والمُفَضَّلَةُ لَديها كانتْ سِلْسِلَةَ «المُنْتَقِمُون»، فأخذَتْها ووَضَعَتْها أَسْفَلَ الحقيبةِ.

يَقُولُ البالِغونَ للصِّغارِ على الدَّوام: «اقْرَأُوا». فما داموا يَهْتَمُّون بالقِراءةِ إلى هذا الحَدِّ، فلماذا لا يَقْرَأونَ هُمْ أيضًا؟

في الحقيقةِ، لَم يَكُنِ السيِّدُ حسن والسيِّدةُ خيالُ يَقْرَآنِ كثيرًا، ومعَ ذلك كانا سَعِيدَينِ بشَغَفِ ساردونيا بِالكُتُبِ والقِراءةِ.

يومًا مِنَ الأيّامِ، سَأَلَتْ زهرةُ الساردونيا أمَّها هذا الأَمْرَ:

ـ «أُمّي. . . إنَّكِ تَطْلُبينَ منّي قِراءةَ الكُتُبِ على الدَّوامِ. لماذا لا تَقْرَئِينَ أنتِ؟!».

تَنَهَّدَتِ السيِّدةُ خيالُ تَنهِيدَةً، ثمَّ قالَتْ:

ـ «نحنُ نَعْمَلُ لِتَدْرُسِي. لِماذا يَشْتَغِلُ الآباءُ ليلًا نَهارًا؟ طبعًا، لأَجْلِ أولادِهم. فأبوكِ يَعُودُ مُتعبًا مِنَ العَمَلِ، يأكُلُ بعضَ اللُّقَيماتِ ثم يَخْلُدُ إلى النَّومِ. معَ الأسفِ، ليس لديه وَقْتٌ لِلقِراءَةِ. وأنا أَعْمَلُ في البيتِ طوالَ اليومِ. هل تَعْلَمِينَ كم مِنَ الصَّعْبِ إدارةُ البيتِ وأعمالِه؟ طبخُ الطعامِ وتَنْظِيفُ الأَطْباقِ؟».

ـ «لكنَّ لَدينا غسَّالةَ الأَطْباقِ، يا أُمّي».

ـ «حتَّى وَلَوْ كانَ. فمَعَ ترتيبِ المَكانِ، والخُروجِ للتسوُّقِ، وغيرِهما، سُرْعانَ ما تَجِدِينَ أنَّ اليومَ قَدِ انتَهى رَيْثَما تُنْهِينَ كُلَّ هذه الأعمالِ. لا وَقْتَ لديكِ للتفرُّغِ للقِراءةِ. عندما تكْبُرينَ تُدْرِكينَ ذلك».

تلك الجُمْلَةُ مِن جديدٍ: «عندَما تَكْبُرينَ تُدْرِكِينَ ذلكَ». كَمْ يَعْشَقُ الكِبارُ هذه الجُملةَ.

هنا قالت ساردونيا لأُمِّها:

ـ «أرى أنَّ هناكَ وَقْتًا لِمُشاهَدَةِ التلفازِ». لَم تُرِدْ ساردونيا

إغضابَ أمِّها، أو أن تُحزِنَها، وإنَّما كانتْ تُحاولُ أن تَفْهَمَ.

ـ «ما الَّذي يُمْكِنُنا أن نَفْعَلَه بعدَ كُلِّ هذا التَّعَبِ؟ نحاولُ أن نُفرِغَ عُقُولَنا مِنَ الإرهاقِ الَّذي أصابَها. فالتِّلْفازُ يُريحُ عقلَ الإنسانِ».

هذا هو الشَّيْءُ الَّذي لم تَكُنْ ساردونيا تَفْهَمُه. هي أيضًا تُحِبُّ مُشاهَدَةَ التلفازِ. لَديها بَعْضُ الأَفْلامِ والمُسَلْسَلاتِ المفضَّلَةِ، وعدَدٌ منَ الأفلامِ الكَرْتُونيَّةِ، لكنَّها لَم تُرِدْ أن تُفْرِغَ عَقْلَها. ومُنذُ أن ذَكَرَتْ لها أمُّها هذا الكلامَ بدأت تُقلِّلُ مِن مُشاهَدةِ التلفازِ خوفًا مِن أن يصيبَ عقلَها شيءٌ. كان لا بدَّ مِن أخذِ الحِيطَةِ، فالإنسانُ يَحْتاجُ إلى عَقْلِه.

هناك أمرٌ آخَرُ لاحَظَتْه ساردونيا أَلَا وهو: أنَّ البالِغينَ يُدْرِكونَ جيِّدًا أنَّ قِراءَةَ الكِتابِ شَيْءٌ مُفيدٌ، وعلى الرَّغْمِ من ذلكَ فإنَّهم يُقاطِعونَ الأولادَ في أثناءِ قِراءتِهم، لكنَّهم لا يَقْتَرِبُونَ مِنَ الطفلِ المُنْهَمِكِ في الدِّراسةِ. إذا كنتَ تَقرَأُ كتابًا اخْتَرْتَه، يبدأونَ بِطَلَبِ الأشياءِ مِنكَ من دونِ تَوَقُّفٍ: «ساردونيا أَحْضِري لي كوبًا مِنَ الماءِ؛ ساردونيا هيَّا أعِدّي المائِدَةَ؛ ساردونيا هيَّا اذهَبي واسقي النباتاتِ في الشُّرْفَةِ». لماذا لا يَتَدخَّلُونَ في الوَلَدِ الَّذي يَدْرُسُ، ويُزْعِجونَ الأولادَ الَّذين يَقْرَأونَ الكُتُبَ؟ لم تَكن ساردونيا تُعْطِي أيَّ معنًى لهذا التَّصَرُّفِ. ما أَغْرَبَ تَصَرُّفاتِ البالِغينَ!

نَظَرَتْ ساردونيا إلى السُّلَحْفاتَيْنِ المائِيَّتين، اللَّيلِ والنهارِ، وهما نائِمتانِ في قارورَتِهما فوقَ الطاولةِ الصغيرةِ، لا تَشْعُرانِ بما يَحْدُثُ.

هَمَسَتْ ساردونيا في آذانِهما على الرَّغم من أنَّها تَعْرِفُ أنَّهما لا يَسْمَعانِها:

ـ «اِحْذَرا مِن تَناوُلِ كُلِّ ما يُقَدِّمُه إليكما المُشاكسُ فرقان».

نَظَرَتْ إلى البابِ. كان مُوصَدًا، كانَتْ قد تَرَكَتْ أهمَّ شيءٍ إلى النهايةِ، وأَخْرَجَتْ ما خَبَّأَتْه تحتَ السريرِ. تَنَفَّسَتِ الصُّعَداءَ، وتسارَعَتْ دقّاتُ قلبِها. كانَتْ تَشْعُرُ بالتَّوَتُّرِ كلَّما أَمْسَكَتْ بهذا الشَّيْءِ بيدَيها.

كان هذا الشيءُ مُجَسَّمَ كُرَةٍ أَرْضِيَّةٍ مُضِيئةٍ. كانَت أكبرَ مِنْ حَبَّةِ البُرْتُقالِ وأصغرَ منْ حَبَّةِ الشَّمّام. عليها كلٌّ مِنَ البحارِ والأنهارِ والجِبالِ والبُحَيْراتِ والجِبالِ البُرْكانيَّةِ. كما كانتِ الحُدودُ بين الدُّولِ مَرْسومةً كأنَّها حِجارةٌ صغيرةٌ مُلَوَّنةٌ تُضيءُ وتَنْطَفِئُ. وعندما تُمْسِكُ بها مِن وَسَطِها تمامًا، يَعْنِي في خَطِّ الاستواءِ، يَنْفَتِحُ شيءٌ شبِيهٌ ببَابٍ يُفتَحُ على مِصْراعيه. لكنَّ داخِلَه لم يَكُنْ فارغًا. ولربَّما فيه قسمٌ سِرِّيٌّ. حاوَلتْ كثيرًا، لكنَّها لم تَجِدْه.

لم تَذْكُرْ أمرَ مُجَسَّمِ الكرةِ الأرضيَّةِ هذا لأَحَدٍ. فلم يَمضِ إلَّا أُسبوعٌ واحِدٌ على عُثورِها عليهِ. كانَتْ ستُحدِّثُ أباها وأمَّها عَنِ الأمرِ طبعًا، لكنَّها كانتْ تَنْتَظِرُ اللَّحْظَةَ المُناسِبَةَ. في الحقيقةِ، لم تَكُنْ تَعْرِفُ إن كانا سَيُصَدِّقانِها، لأنَّها لم تَكُنْ كُرَةً كغيرِها مِن الكُراتِ. إنَّها سِحْرِيَّةٌ. ما استطاعَتْ أن تُثْبِتَ هذا بَعْدُ، إلَّا أنَّها كانتْ تشعُرُ بذلك.

الأمْرُ الَّذي حَيَّرَ زهرةَ الساردونيا هو الشَّيْءُ العَجيبُ الَّذي شاهَدَتْه في مُجَسَّم الكُرةِ الأرضِيَّةِ، فقد كانتْ تَعْرِفُ أنَّ قارّاتِ العالَمِ سَبْعٌ، وهي: أفريقيا، آسيا، أوروبّا، أميركا الشماليَّةُ، أميركا الجَنوبيَّةُ، أنتارتيكا، أستراليا، غيرَ أنَّها لم تَكُنْ سَبْعًا في هذه الكُرَةِ، بل كانَتْ ثمانِيَ قارّاتٍ. لقدِ اكْتَشَفَتْ قارَّةً جديدةً في جزيرةٍ في وَسَطِ المُحيطِ الأَطْلَسِيِّ، كما أنّ شَكْلَها أيضًا كان غريبًا. وإذا أَمْعَنَتِ النظرَ إليه يَبدو ككِتَابٍ مفتوحٍ.

كانت زهرةُ الساردونيا مُتَأَكِّدَةً مِن عَدَمِ وجودِ قارَّةٍ ثامِنةٍ. هل، يا تُرى، أُضيفَتْ إلى الكُرةِ فيما بعدُ؟! إذا كان الأمرُ كذلك، فمَن رَسَمَها هنا؟ ولِماذا؟ أم أنَّها حقيقةٌ؟ واضحٌ أنَّ هذه القارَّةَ كانتْ موجودةً في العُصُورِ القديمةِ، يَعْني في عصرِ الديناصوراتِ، وقدْ غَرِقَتْ في فترةٍ مِن الفَتَراتِ، أوِ اخْتَفَتْ. هل هذا مُمْكِنٌ؟! كانتْ مُتَشَوِّقَةً إلى مَعْرِفَةِ أَجْوِبَةٍ عن هذه الأسئلة.

أَخَذَتْ قِطْعةً مِن ملابسِها مِن الخِزانةِ، ولفَّتِ الكُرَةَ بها بدقَّةٍ واهتمامٍ، ووَضَعَتْها في أسفلِ الحَقيبةِ، ثمَّ وَضَعَتِ الكُتُبَ فوقَها وَخَبَّأَتْها جيِّدًا. لقد أرادَتْ أن تأخُذَها في زيارتِها لجَدِّها وجَدَّتِها، فهي لن تَذْهَبَ إلى المَدْرَسَةِ في هذه المُدَّةِ، وبهذا ستَمْلِكُ ما يَكْفي مِنَ الوقتِ. كما أنَّها سَتَكْتَشِفُ سِرَّ الكُرةِ السِّحْرِيَّةِ في وَقْتٍ قريبٍ.

اكتشافٌ عَجِيبٌ

تذكَّرَتِ اليومَ الَّذي وَجَدَتْ فيه هذه الكُرَةَ. . .

قبل أُسْبَوعٍ تمامًا مِن هذا اليوم، كانتْ ساردونيا قَدْ قامت بزيارةِ مكتَبةِ المدرسةِ. فقد كانتْ تَتَرَدَّدُ كثيرًا إلى هناكَ كلَّما وَجَدَتْ فُرْصَةً في الاستراحاتِ. كانتْ تُحِبُّ المَكْتَبةَ، ومِن كَثْرَةِ زياراتِها لها كانتْ تَعْرِفُ مَكانَ كلِّ شَيْءٍ فيها. ففي الجِهةِ اليُسرى مِنَ المَدْخَلِ، كانتْ تَصْطَفُّ رواياتُ المُغامراتِ، وقدْ قَرَأَتْ مُعْظَمَها. وفي الرُّفوفِ المقابِلَةِ كُتُبُ الفضاءِ، وفي الرفوفِ السُّفْلِيَّةِ كُتُبُ الطبيعةِ والحيواناتِ. . .

كانت الكُتُبُ مصفوفةً، بحسبِ الترتيبِ الهجائيِّ.

سارَتْ في المَكْتَبَةِ وهي شاردةُ الذهنِ. ما أكثرَ الكُتُبَ المَوْجُودةِ هنا! كم تريدُ أن تَقْرَأَها كلَّها! هل يستطيعُ الإنسانُ

أن يَقْرَأَ مَكْتَبَةً بأكملِها؟ كم تَسْتَغْرِقُ مِنَ الوقتِ قِراءةُ هذا الكَمِّ مِن الكُتُبِ؟ إلى جانبِ هذا، كانتْ تأتي كُتُبٌ جديدةٌ باستمرارٍ إلى المكتبةِ، حتَّى أَصْبَحَتِ المَكْتَبَةُ تَكْبُرُ بسرعةٍ مِثلَ الأطفالِ. حتَّى أمينةُ المَكْتَبَةِ، السيِّدةُ أسيلُ، هل قرأَتْ كُلَّ هذه الكُتُبِ أيضًا؟

توقَّفَتْ ساردونيا عندَ قِسْمِ الحَرْفِ «ق». ففي هذا القِسْمِ، الروايةُ التي كانَتْ تَوَدُّ قِراءَتَها منذُ فَتْرَةٍ طويلةٍ: روايةُ «قلبِ الطفلِ». وَجَدَتِ الكتابَ الَّذي تبحَثُ عنه بسهولةٍ، وأَخَذَتْهُ مِنَ الرَّفِّ. في تلك اللَّحظةِ، شَدَّ انتباهَها شيءٌ لامعٌ خلفَ الكتابِ، فاقترَبَتْ وأَمْعَنَتِ النَّظَرَ. ما هذا، يا تُرى؟

كان هناكَ شَيْءٌ كُرَوِيٌّ، قد غطّاهُ الترابُ والغُبارُ. تعجَّبَتْ مِن هذا الأمرِ، فأمينةُ المكتبةِ كانتْ تهتمُّ كثيرًا بنظافةِ المكتبةِ، وتمسحُ غبارَ كلِّ كتابٍ على حِدَة. لا بدَّ من أنَّها لم تنتبهْ للكُرةِ. وربَّما وضعَها أحدُ التلاميذِ في المكتبةِ خطأً، ثمَّ نَسِيَها هناك. أَخَذَتْ ساردونيا الكُرةَ. راودَها شعورٌ غريبٌ عندما أصبحَتِ الكُرةُ بين يدَيها. مِنَ المُمْكِنِ أن يكونَ أحدُهم خبَّأَها هنا، وسيعودُ يومًا لِيستعيدَها.

كانت ساردونيا تعلمُ بأنّه يجبُ عليها تسليمُ الكُرةِ إلى السيِّدةِ أسيلَ، أو أنْ تتركَها في المكانِ الَّذي وجدتها فيه على الأقلِّ، لكنَّها لم تستطعْ فعلَ ذلك. التفتَتْ يَمْنَةً ويَسْرَةً. لم

يكن هناكَ أيُّ أحد. لم تَسْتَطِعْ أن تقاومَ صفةَ الفضولِ لديها. لِماذا هذه الكُرةُ مغطّاةٌ بالغُبارِ، يا تُرى؟ هل هي قديمةٌ جدًّا؟ ومِن أينَ أَتَتْ إلى هنا؟

في تلك اللَّحظةِ، حَدَثَ شيءٌ غريبٌ. بَدَأَتِ الحجارةُ المَصْفوفةُ على الكُرَةِ تُصْدِرُ ضَوْءًا وتَنْطَفِئُ. فَزِعَتْ ساردونيا وتراجَعَتْ على الفَوْرِ، غيرَ أنّ صوتًا في داخلِها يُحَدِّثُها بأنَّ هناكَ سرًّا في هذه الكرة. كان لا بدَّ من أن تَجِدَ ذاك السرَّ. جَمَعَتْ كلَّ شجاعتِها وَوَضَعَتِ الكُرةَ في حقيبتِها. وستأتي فيما بعدُ لأخذِ كتابِ «قلبِ الطفلِ». توجَّهَتْ نحوَ الخروجِ، وفي تلك الأثناءِ سَمِعَتْ صوتًا:

ـ «ساردونيا».

يا إلٰهي، لقد كُشِفَ أمرُها. التفَتَتْ، وإذ بأمينةِ المكتبةِ تَقِفُ في مَمَرِّ المَكْتَبَةِ، وعلى وَجهِها ابتسامةٌ عريضةٌ. فقد كانتِ السيِّدةُ أسيلُ تُحِبُّ ساردونيا كثيرًا:

ـ «هل أنتِ ذاهبةٌ؟»

ـ «نعم، يا سيِّدتي».

ـ «أرى أنّكِ لم تأخُذي كتابًا اليومَ».

احمَرَّ وَجْهُ ساردونيا، لكنَّها أجابَتْ:

ـ «قَرَّرْتُ أن أقرأَ الروايةَ التي بينَ يدَيَّ مرَّةً أخرى».

هزَّتِ السيِّدةُ أسيلُ رأسَها:

ـ «أحيانًا يحدُثُ هذا معي أيضًا. أرغَبُ في قراءةِ الحكايةِ التي تُثيرُ إعجابيَ مُجَدَّدًا، حتَّى إنَّني أحزَنُ أحيانًا عندما يَنْتَهِي الكِتابُ. أقرأُها ببطءٍ كي لا يَنْتَهِيَ بسُرْعة».

ـ «أنا أيضًا».

ـ «أُحِبُّ قِراءةَ الكُتُبِ التي قَرَأْتُها. هل تعرفينَ أنَّني أتعجَّبُ أحيانًا، لأنَّني عندَ قراءتي الثانيةِ لها أشعُرُ بأنَّهُ ليس الكتابَ نفسَه، وإنَّما كتابٌ مختلفٌ».

اسْتَمَعَتْ ساردونيا إليها بِتَعَجُّبٍ:

ـ «ولِماذا؟!».

ـ «لَيْسَتْ نفسَها لأنَّني أنا التي تغيَّرَتْ، لأنَّني أَتَعَلَّمُ كُلَّ يَوْم أشياءَ جديدةً. ففي قراءتي الأولى للكتابِ، أَتَعَلَّم أشياءَ قليلَةً، أمَّا في المَرَّةِ الثانيةِ، فأتعلَّمُ أشياءَ أَكْثَرَ. فعِندَما يَتَغَيَّرُ القارئُ يَتَغَيَّرُ المَقْرُوءُ أيضًا».

لم تَفْهَمْ ساردونيا تمامًا ما قالَتْه أمينةُ المَكْتَبَةِ، إلَّا أنَّه أَعْجَبَها ما سَمِعَتْه. ابْتَسَمَتْ، غيرَ أنَّها كانتْ قَلِقَةً، وبدأتِ الأفكارُ تُراودُها: ماذا لو أنَّ أمينةَ المَكْتَبَةِ طَلَبَتِ الاطِّلاعَ

على ما في داخلِ حقيبتِها؟ ماذا لو اكْتَشَفَتْ أنَّها أَخَذَتِ الكُرةَ؟ كيف ستبرِّرُ حينَئذٍ؟ لحُسْنِ الحَظِّ أنَّ إحدى المعلِّماتِ نادَتْ أمينةَ المَكْتبةِ.

ـ «عَلَيَّ أن أَذْهَبَ الآنَ، نَلْتَقِي فيما بعدُ يا ساردونيا».

لوَّحَتْ ساردونيا بيدِها: «إلى اللِّقاءِ»، وخَرَجَتْ مِنَ المَكْتَبَةِ بِهُدوءٍ.

طَوالَ اليوم انْتَظَرَتِ اللَّحظةَ التي ستبقى فيها وَحْدَها. حتَّى في دَرْسِ العُلُوم كانتْ مَشْغُولةَ البالِ، بحيثُ إنَّها لم تَفْهَمْ أيَّ شَيْءٍ مِنَ الدَّرْسِ. وعندما التفَتَتِ المُعَلِّمةُ إلى السبُّورةِ نَزَلَتْ ساردونيا تحتَ مَقْعَدِها المَدْرَسِيِّ، وفتحَتْ حقيبتَها لتتناولَ الكُرةَ الأرضيَّةَ. وبينما هي في هذه الحالةِ، نادَتْها المُعَلِّمةُ:

ـ «زهرة الساردونيا... عَمَّ تَبْحَثِينَ هناكَ؟».

توتَّرَتْ ساردونيا فَصَدَمَتْ رأسَها بالمَقْعَدِ، وبدأتِ الضَّحِكاتُ تعلو في الصفِّ. خرجَتْ عَلى الفورِ.

ـ «تَفَضَّلي».

ـ «تَفَضَّلي، يا مُعَلِّمتي؟».

لم تَفْهَمِ المُعَلِّمةُ ليلى سَبَبَ شُرودِ تلميذتِها المُحَبَّبةِ. «هل سَقَطَ منك شَيْءٌ؟».

تَرَدَّدَتْ ساردونيا ولم تُرِدْ أن تَخْتَلِقَ عُذْرًا، ولم يَكُنْ منها إلَّا أن قالَتْ: «اعذُريني، يا مُعَلِّمتي».

استَمَرَّ الدَّرسُ بهدوءٍ. لم تَنْظُرْ ساردونيا إلى الكُرةِ مَرَّةً أُخرى، ولا حتَّى في الاستراحاتِ. فلَمْ تَكُنْ تستطيعُ أن تَفْعَلَ هذا أمامَ غيرِها مِنَ التلاميذِ. وأخيرًا، جاءَتِ الفُرْصَةُ المنتَظَرَةُ، في الدَّرْسِ الأخيرِ.

كان جميعُ الطلَّابِ يَلْعَبون الكُرَةَ في حصَّةِ الرياضةِ. أَوْهَمَتْهم ساردونيا بأنَّها نَسِيَتْ شيئًا وعادَتْ إلى الصفِّ. كان المكانُ فارغًا، وليس هناكَ إلَّا صَديقُها أميرٌ، وكانَ نائمًا في المَقْعَدِ الأوَّلِ بِسَببِ مَرَضٍ في مَعِدَتِه.

توجَّهَتْ ساردونيا إلى مَقْعَدِها في الخَلْفِ، حيث لا يَسْتَطيعُ أميرٌ أن يراها مِن مكانِه. فَتَحَتْ حقيبتَها! يا له مِن أمرٍ عجيبٍ كأنَّ الكُرةَ قد تغيَّرَتْ. لقد نُظِّفَتْ تمامًا مِن الغُبارِ الَّذي عليها.

مَن نظَّفَها، يا تُرى؟ كانَتِ الحجارةُ المَصْفُوفةُ بين القارَّاتِ ما زالت تُضيءُ وتَنْطَفِئُ، لكنْ بشكلٍ أضعفَ ممَّا كانَتْ عليه. وفجأةً، سَمِعَتْ صَوْتَ موسيقى هادئًا ولطيفًا، كأنَّه يَأْتي مِنَ الأعماقِ؛ مِنَ البَعيدِ البَعيدِ. . .

فَتَّشَتْ في الكُرَةِ جَيِّدًا لِتَعْرِفَ مَصْدَرَ الموسيقى، وعندَما

أَمْسَكَتْ بها مِن مِنْطَقَةِ خَطِّ الاستواءِ، عرفَتْ أنَّها تُفتَحُ مِنَ الوَسَطِ، لكنَّها لَم تَجِدْ شيئًا في داخلِها. كانتْ تَعْرِفُ أَنَّ الصناديقَ الموسيقيَّةَ تُصْدِرُ الموسيقى بَعْدَ رَبْطِها بمِفتاحٍ خاصٍّ بها. أمَّا في هذا الصُّنْدوقِ، فَلَمْ يَكُنْ هناكَ مِفتاحٌ، أو أيُّ مكانٍ خاصٍّ بالموسيقى. كانتِ الكُرَةُ فارغةً.

أَمْسَكَتْ بالكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ بِيَدِها وأدارَتْها مِثلَ الكُرَةِ، حينَها لاحَظَتِ القارَّةَ الثامنةَ. يا إلٰهي، هذا شَيْءٌ عجيبٌ! كيف لم تلاحِظْ هذا مِن قَبْلُ؟ أمْ أنَّ هذه القارَّةَ بدأَتْ بالظُّهورِ الآنَ؟ أمْ أنَّها كانَتْ مُخْتَبِئَةً في مياهِ المحيطِ تَنْتَظِرُ، وفيما بعدُ قرَّرَتْ أن تُظهِرَ نفسَها. في تلكَ اللَّحْظَةِ، شَعَرَتْ ساردونيا بأنَّ الكُرَةَ الأرضِيَّةَ التي بين يدَيها مُفعمَةٌ بالحياةِ. تتنفَّسُ وتفكِّرُ. خافت مِنَ الوَضْعِ، ومباشرةً وَضَعَتْ هذه الكُرةَ في حقيبتِها. ورَجعَتْ إلى دَرْسِ الرياضةِ.

لقدْ مضى أسبوعٌ مُنذُ ذلك الحينِ وحتَّى هذا اليومِ. لَمْ تَجْرُؤْ على فَتْحِ هذه الكُرَةِ إلَّا مرَّاتٍ معدودةً. لقد عاهَدَتْ نفسَها على أمرين: الأوَّلُ: أن تُعْلِمَ والدَيها بالمَوْضوعِ، وبمجرَّدِ أن تَجِدَ الفُرصةَ مناسِبَةً ستُخْبرُهما به. والثاني: أن تُعيدَ الكُرَةَ الأرضيَّةَ إلى المَكْتبةِ. لكنَّها لَمْ تَفْعَلْ أيًّا مِنهما بَعْدُ، إذ أُعلِمَتْ بِسَفَرِ والدَيها المفاجِئِ.

سَمِعَتْ صَوْتَ وَقْعِ خُطُواتٍ آتيًا مِنَ الخارجِ. كانَتْ أمُّها

تَدْخُلُ الغُرْفَةَ مباشَرَةً من دونِ سابقِ إنذارٍ. أمَّا أَبُوها، فكانَ يَطْرُقُ البابَ ويَنْتَظِرُ قليلًا، ثم يَدْخُلُ الغُرْفَةَ.

فُتِحَ البابُ فَجْأَةً، ومَدَّتِ السيِّدةُ خيالُ رأسَها:

ـ «أرى أنَّكِ جَهَّزْتِ حقيبَتَكِ».

ـ «نعم، لَقَدْ وَضَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ، بِشَكْلٍ مُرَتَّبٍ».

ـ «لِأَرَ!!»

احمَرَّ وَجْهُ ساردونيا. ماذا لَوْ رَأَتِ الكُرَةَ؟ جيِّدٌ أنَّ السيِّدَةَ خيالَ اكْتَفَتْ بإلقاءِ نَظْرَةٍ مِن بَعِيدٍ: «جيِّدٌ، أَحْسَنْتِ، هيَّا، تعالَيْ وتناوَلي الحَلْوى».

ـ «حَلْوى؟!».

ـ «نعم، الحَلْوى التي تُفَضِّلينَها؛ حَلْوى الحَليبِ».

كانَتْ ساردونيا تُسمِّي المُهَلَّبِيَّةَ في صِغَرِها: «حَلْوى الحَلِيبِ». ومنذُ ذاكَ اليَوْمِ، تَغَيَّرَ اسمُ الحَلْوى هذه، وكانَتِ الحَلْوى المُفَضَّلَةَ لديها.

ابْتَسَمَتْ أمُّها، لكنَّها كانَتْ حَزِينَةً طَبْعًا لأنَّها ستُفارِقُها أُسبوعًا كامِلًا. وعلى الرَّغْمِ من ذلك، فإنَّ ساردونيا كانَتْ تَعْرِفُ أنَّ البالِغينَ يُخْفُون مشاعِرَهم في كثيرٍ مِنَ الأَوْقاتِ، وبَدَلًا مِن ذلكَ يُظْهِرُونَها بأشياءٍ صَغِيرةٍ. فَتَجْهيزُ الطَّعامِ

المُفَضَّلِ لشخصٍ يعني أنَّه يقولُ له «أنا أُحِبُّك». أَمْسَكَتْ بيدَيْ أُمِّها وابْتَسَمَتْ، وَرَدَّتْ عَلَيْها: «أنا أيضًا أحبُّكِ». وتعانَقَتِ الأُمُّ وابنتُها.

نامَتْ ساردونيا باكرًا في تلكَ اللَّيلةِ. وفي ساعَةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللَّيلِ، اسْتَيْقَظَتْ تَشْعُرُ بِعَطَشٍ شَديدٍ. كانَ ضَوْءُ المِصْباحِ اللَّيْليِّ يَنْعَكِسُ مِنَ الممرِّ. توجَّهَتْ نَحْوَ المَطْبَخِ، وبِهُدوءٍ مَلَأَتْ كُوبَ ماءٍ وشَرِبَتْه بهَناءٍ.

وبينما هَمَّتْ بالعَوْدَةِ إلى غُرْفَتِها سَمِعَتْ هَمْسًا صادرًا مِنَ الصالةِ. لم ينَمْ والداها حتَّى الآنَ. وفي أثناءِ تَقَدُّمِها نَحْوَ الصالةِ، إذ بها تُفاجَأُ بِجُمْلَةٍ تَسْمَعُها مِن أمِّها:

ـ «لن تباشِرَ بالعَمَلِ بعدَ إجْراءِ العَمَلِيَّةِ. هل هذا مَفْهُومٌ؟ عليكَ أن تَرْتاحَ جَيِّدًا».

أجابَها السيِّدُ حسن:

ـ «سَأَرتاحُ. أَعِدُكِ بذلكَ، لكنْ عَلَيْنا ألَّا نُشْعِرَ ابنتَنا بشَيْءٍ. أخشى أن تَحْزَنَ صغيرتُنا».

ـ «بالتأكيدِ، لا عَلَيْكَ».

حينَها أَدْرَكَتْ ساردونيا أنَّ والِدَيها لا يَذْهَبانِ في رِحْلَةِ عَمَلٍ لأبيها، وإنَّما هما ذاهبانِ لإجراءِ عَمَلِيَّةٍ جِراحيَّةٍ لهُ. لَقَدْ

أَخْفَيا الحَقيقةَ عنها كَيْ لا تَقْلَقَ ولا تَحْزَنَ. تَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عينَيها، ثم قرَّرَتْ أَلَّا تُشْعِرَ والدَيها بِمَعْرِفَتِها بالحقيقةِ، لكنْ كان لا بدَّ لها مِن مُشارَكَةِ حُزْنِها مَعَ أَحَدِهم.

عادَتْ إلى غُرْفتِها وأَخْرَجَتْ مُذَكِّرَتَها اليَوْمِيَّةَ التي وَضَعَتْها في حَقِيبةِ السَّفَرِ. كانتْ قَدْ وَضَعَتْ لها اسمًا هُوَ: «الشَّجَرَةُ العَظِيمةُ»، لأَنَّها كانتْ تَعْرِفُ أنَّ الأوراقَ مَصْنوعةٌ مِن الشَّجَرِ. وكُلَّما اسْتَهْلَكْنا الوَرَقَ أكثرَ ازدادَ عَدَدُ الأشجارِ المَقْطُوعَةِ. لهذا السَّبَبِ كانتْ تَسْتَخْدِمُ دفترَها بكُلِّ اهتِمامٍ وتحاوِلُ أَلَّا تَسْتَهْلِكَ أيَّ وَرَقَةٍ منه هباءً.

«عزيزتي الشَّجَرَةَ العَظيمةَ:

أنا ذاهبةٌ إلى بيتِ جَدِّي وجَدَّتي، وسأمْكُثُ لَدَيهما أُسبوعًا كاملًا. أنا مُتَحَمِّسةٌ جدًّا، فكَمْ أُسَرُّ برُؤيتِهما، لكنِّي قَلِقَةٌ بشأنِ والِدِي. والدايَ يُخْفِيانِ أَمْرَ عَمَلِيَّتِه الجِراحِيَّةِ عنِّي، سَأَتَصَرَّفُ كأنَّني لمْ أعلَمْ بالأمرِ، لكنِّي سأدعو له خِفْيَةً. سأُخْبِرُكِ بالمُسْتَجِدّاتِ من فَوْري. وفي كلِّ حالٍ، أنتِ أيضًا سَتَحْضُرينَ معي. مَن يَدْري، فربَّما نعيشُ مُغامراتٍ جديدةً معًا كما في الرِّواياتِ...

زهرةُ الساردونيا (الفَتاةُ التي لا تُحِبُّ اسمَها)».

زِيارَةٌ للضَّاحِيَةِ

كانَتِ السيِّدَةُ كريمةُ والسيِّدُ كاملٌ يَعِيشانِ في بَيْتٍ مُؤَلَّفٍ مِن طابِقَينِ، وَرْدِيِّ اللَّونِ في ضاحِيَةٍ جَميلةٍ. في الجهةِ الخَلْفِيَّةِ للمَنْزِلِ حديقةٌ صغيرةٌ، فيها خمسُ شَجَراتٍ: تُفّاحٍ وكُمَّثْرى وكَرَزٍ وتُوتٍ وخَوْخٍ. كانَتْ ساردونيا في طفولتِها تَلْعَبُ مَعَ أولادِ الجيرانِ كثيرًا مِنَ الألْعابِ الشعبيَّةِ كالغُمَّيضةِ وغيرِها مِن الألعابِ. كما أنَّ هناكَ مكانًا آخَرَ مُفضَّلًا في بيتِ جَدَّتِها، وهو بَيْتُ المَؤُونةِ، حيث جِرارُ مُخَلَّلِ الملفوفِ والخِيارِ والباذِنْجانِ ووَرَقِ العِنَبِ، مُصْطَفَّةٌ خلفَ بعضِها البعضِ... ما أكثرَ الأنواعِ التي كانَتْ مَوْجودةً هناكَ! فالسيِّدةُ كريمةُ كانَتْ تصنَعُ المخَلَّلَ مِن أكثَرِ الخُضَرِ. إضافةً إلى ذلكَ، كانتْ تعلِّقُ في السِّلالِ بعضَ الفاكهةِ والخُضَرِ المجفَّفةِ، كالفُلفلِ والبامِيةِ والتَّفّاحِ والكُمَّثْرى، والمكسَّراتِ،

كالجَوْزِ والبُنْدُقِ والفُسْتقِ. . . وإلى جانبِ هذا وذاك جميعُ أنواعِ المربَّى، مثلِ مُرَبَّى المُشْمُشِ والبُرْتقالِ والفراولةِ والتِّينِ. . . كانَتِ الألوانُ والروائحُ التي تعُمُّ بيتَ المَؤُونةِ تَسحرُ ساردونيا. وقد وضعتْ جَدَّتُها غطاءً مطرَّزًا فوقَ كلِّ جرَّةٍ أو قارورةٍ من دونِ تعبٍ أو مللٍ. ولا عَجَبَ في هذا، فالبَيْتُ مليءٌ بمَناديلَ ناصِعَةِ البَياضِ، مُطرَّزةٍ بمَهارةٍ. فعلى الأريكةِ مثلًا مَناديلُ مُرَبَّعةُ الشكلِ مطرَّزةٌ، وفوقَ الطاولاتِ مَناديلُ بَيْضاويَّةُ الشكلِ، وعلى الرُّفوفِ وفوقَ التلفازِ والهاتفِ وتحتَ الكُؤوسِ مَناديلُ مطرَّزةٌ في جميعِ الأشكالِ.

كانَ فوقَ الطاولةِ الرُّخاميَّةِ المَوْجودةِ وَسَطَ الصالةِ طَبَقٌ مِنَ الكريستالِ فيه نَوْعٌ مِنَ الحَلْوى المُحَبَّبَةِ لديها. كانَ طَعْمُ هذا البَيْتِ مِثلَ طَعْمِ هذه الحَلْوى. لقد جاءَتْ ساردونيا إلى هذا البَيْتِ وهي رَضيعَةٌ، ولم يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ منذ ذلك الحينِ وحتّى هذا اليَوْمِ. كان مَكانًا خارجَ نِطاقِ الزَّمَنِ، بحيثُ إنَّ الأشجارَ تكبُرُ، والأطفالَ يَزْدادُونَ طُولًا، والحَيَواناتِ تكبُرُ في العُمرِ، وتَتَعاقَبُ الفُصولُ، وتَزْدَحِمُ المُدُنُ، إلّا أنَّ هذا المَكانَ يبقى كَما هو. لمْ يتغيَّرْ شَيْءٌ، حتَّى الأثاثُ والأشياءُ والرَّوائحُ، وحتَّى هَواءُ الصالةِ.

في اليَوْمِ التالي، خَرَجَتْ زهرةُ الساردونيا مَعَ أمِّها في رحلتِهما إلى الضاحِيَةِ. جَلَسَتِ السيِّدةُ خَيالُ مَعَ أمِّها قليلًا ثمَّ

عانَقَتِ ابنتَها وعادَتْ على الفَوْرِ. تَجْلِسُ ساردونيا الآنَ في الصالةِ بين المَناديلِ المُطَرَّزةِ. وتجلِسُ جَدَّتُها في جِهَةٍ، وفي الجِهَةِ الثانيةِ جَدُّها يَنْظُرُ إليها بحُبٍّ. وبين قدمَيها القطُّ البُرتقاليُّ السَّمِينُ.

ـ «أَهْلًا بكِ يا حَفِيدتي العَزيزةَ، أَهْلًا وسَهْلًا بكِ. هل أنتِ جائعةٌ. لقد جهَّزْتُ لكِ ما لَذَّ وطابَ».

كانت زهرةُ الساردونيا تعرفُ تمامًا أنَّها حتَّى لو قالت إنَّها ليستْ جائعةً فَسَتُطْعِمُهَا جَدَّتُها، لهذا أجابَتْ جدَّتَها: «نعمْ، يُمْكِنُني أن أَتَناوَلَ القَليلَ».

ـ «وهل يَكْفي القَليلُ يا بُنيَّتي».

وخلالَ خَمْسِ دَقائقَ كانَتِ الطاولةُ الصَّغيرةُ مَليئةً بطَعامِ الفَطورِ. بدأتِ السيِّدةُ كريمةُ تَدْهَنُ قِطَعَ الخُبْزِ بالزُّبْدةِ، والمُرَبَّى والعَسَلِ واللَّبَنِ والدِّبْسِ، وصَفَّتْ قِطَعَ الخُبْزِ إلى جانبِ بَعْضِها بَعْضًا، ولمْ تَنْسَ كَعْكَةَ الشوكولاتَةِ ولا الحَلْوى، ورائحَتاهما تُوحيان بأنَّهما خَرَجَتا مِنَ الفُرنِ للتَّوِّ.

كانَتِ السيِّدةُ خيالُ لا تَسْمَحُ لساردونيا بتناوُلِ الكثيرِ مِنَ الحَلْوى كي لا تَضُرَّ أسنانَها. لكنَّ هذه القَوانينَ لم تَكُنْ تُطَبَّقُ في بيتِ السيِّدةِ كريمةَ. طبعًا كانتْ هناكَ قوانينُ، لكنَّها تُطبَّقُ على الجَدِّ فَحَسْبُ. فقدْ كانَ السيِّدُ كاملٌ يأكُلُ كلَّ شَيْءٍ من

دُونِ مِلْحٍ أو سُكَّرٍ أو حتَّى زَيْتٍ. كانَ يَشْكُو دائمًا مِنْ طَعْمِ أَكْلِهَ قائلًا: «يا إلٰهي، طَعْمُه مِثْلُ التِّبْنِ». أمَّا بالنِّسبةِ إلى ساردونيا، فلم يَكُنْ هناكَ أيُّ شَيْءٍ مَمْنوعٍ. كانَتْ تأكُلُ كلَّ شَيْءٍ من دُونِ أن يَمْنَعَها أَحَدٌ. حتَّى شُرْبُ الشايِ لم يَكُنْ مَمْنُوعًا.

ـ «انظُري يا ابنَتي، هذا الشايُ يُسمَّى شايَ الباشا. قَليلٌ مِنَ الشايِ والماءِ معَ القليلِ مِنَ العَسَلِ»؛ هٰكَذا قالَتِ الجَدَّةُ.

رَدَّ الجَدُّ على الجَدَّةِ بقولِه:

ـ «وهل تُعطى الفَتَياتُ شايَ الباشا، فالفَتَياتُ لَن يُصْبِحْنَ باشا».

ـ «صحيحٌ، إذن، نُسمِّيهِ شايَ الأَميراتِ».

بينَما كانَتْ ساردونيا تَرْتَشِفُ الشايَ، فَكَّرَتْ: هَلْ يُمْكِنُ أن تُصبِحَ الفَتَياتُ باشا يومًا ما؟ ثم قَرَّرَتْ أن تَكْتُبَ هذا المَوْضوعَ في مُذَكِّرتِها في أَقْرَبِ فُرْصَةٍ.

أَكْمَلَتِ الجَدَّةُ حديثَها:

ـ «اخرُجي مَعَ جَدِّكِ اليومَ إلى البُستانِ وازرَعا بَعْضَ الوُرودِ، ثمَّ عودي لِتُساعِديني في المَطْبَخِ، فالجيرانُ سَيَأْتُونَ لِزيارتِنا في المَساءِ».

ـ «حَسَنًا، يا جَدَّتي، هل يُمْكِنُني أَنْ أَقْرَأَ الكِتابَ في غُرفتي أيضًا؟».

ـ «طَبْعًا، لقد نَسِيتُ مَدى شَغَفِك بِقِراءَةِ الكُتُبِ. اقْرَئي يا بُنَيَّتي... اقرَئي لِتزدادَ ثَقافتُك وعِلْمُك، ولتتفَوَّقي علينا جميعًا، وتَصِلِي إلى أعلى المَراتبِ».

كانَتِ الغُرفةُ الخَلْفِيَّةُ قد جُهِّزَتْ لساردونيا. هذه الغُرفةُ كانتْ غرفةَ أمِّها في القِدَمِ، يعني عندما كانتْ أمُّها في عُمْرِها. وما زالَتْ عَلى حالِها منذ ذلك الوَقْتِ. كانَتْ ساعةُ الحائطِ لا تَعْمَلُ فقط. مَن يَدْرِي مَتى تَوَقَّفَتْ هذه الساعةُ عنِ العَمَلِ. كما كانتْ هناكَ بعضُ اللَّوْحاتِ القديمةِ. صُوَرٌ لِبعضِ الأفلامِ وأبطالِ الأفلامِ الَّذين لا تَعْرِفُهم ساردونيا...

فَتَحتْ حقيبتَها، وأخرَجَتْ مجسَّمَ الكُرةِ الأَرْضِيَّةِ بلُطْفٍ. كانَتْ قد فَكَّرَتْ مِن قبلُ في المكانِ الَّذي يُمْكِنُ أن تُخَبِّئَه فيه. وَضَعَتْهُ داخلَ ساعةِ الحائطِ، فجَدَّتُها لا تنظُرُ إليهِ. ثم أَخْرَجَتْ كِتابًا مِن حقيبتِها وبَدَأَتْ بالقِراءةِ. وفي هذه الأثناءِ، بدأتِ الرَّوائحُ الزَّكِيَّةُ تَفوحُ مِنَ المَطْبَخِ لتَنْتَشِرَ في كُلِّ أرجاءِ البَيْتِ. لم تَتَحَمَّلْ ساردونيا فَخَرَجَتْ مِن الغُرفةِ متَّجِهَةً إلى الصالةِ لِترى الطاولةَ مَليئةً بالأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ؛ كالشطائرِ، والحَلْوى، والكَعْكِ، والمَلْفوفِ، وغيرِها مِنَ المأكولاتِ... لم تُصَدِّقْ عينَيها.

ـ «كيفَ سَيَأْكُلونَ كُلَّ هذا الطعامِ؟».

ـ «وحتّى لَوْ لَمْ يَأْكُلوا، عَلَينا أن نُقدِّمَ الطَّعامَ إليهِم ونُكْرِمَهم».

ـ «ولِماذا؟».

ـ «يَجِبُ إكرامُهم يا صغيرتي، فعلى قَدْرِ اهتمامِك بإكرامِ الجيرانِ يكونُ احترامُك وتقديرُك لَهُم. هل تَعْلَمين ماذا يَعْنِي إن أكرَمْتِهم بالقَليلِ؟».

ـ «لا أَعْرِفُ».

ـ «هذا يَعْني أَنَّك لا تَهْتَمِّينَ بهم ولا تُقدِّرينَهم».

اخْتَلَطَ عَقْلُ ساردونيا، فالتَفَتَتْ إلى جَدَّتِها وقالَتْ لها:

ـ «لكنَّكم تقولونَ لنا دائمًا إنَّ عَلَينا ألَّا نُبْقِيَ شَيْئًا مِنَ الطعامِ، فهذا لا يَجوزُ. فإذا كانوا لن يأكُلوا كُلَّ هذا الطَّعامِ، فهذا يَعْني أنَّه سيزيدُ، فهل يَجُوزُ هذا».

تَوَقَّفَتِ السيِّدةُ كريمةُ بُرْهةً، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ وقالَتْ لها:

ـ «يا لكِ مِن فتاةٍ عاقِلَةٍ وذَكِيَّةٍ».

بَعْدَ مُدَّةٍ قصيرةٍ، بدأتِ الجاراتُ يَأْتينَ واحِدَةً تلوَ الأُخرى. كانتْ ساردونيا تَسْمَعُ أصواتَ مَلاعِقِ الشايِ وَقَدِ

اخْتَلَطَتْ بِبُكاءِ الأَطْفالِ، ويَتَخَلَّلُها أحيانًا صَوْتُ ضَحِكاتِهِم. كيف كانوا يُصْدِرونَ كُلَّ هذه الأَصْواتِ؟! كان جَدُّها السيِّدُ كاملٌ قد أَخَذَ قُبَّعَتَه وعُكَّازَه وذَهَبَ إلى المَقْهى. وقبلَ أن يَخْرُجَ غمزَها وقالَ لها مازحًا: «سأفِرُّ وأُنقذُ نَفْسِيَ، وأنتِ أيضًا حاوِلي أن تُنْجِي نَفْسَك». فَجْأَةً انْخَفَضَتِ الأصواتُ تمامًا، فشعرَتْ ساردونيا بأنَّهم يَتَحَدَّثونَ عنها، فاسْتَمَعَتْ إلى الحَديثِ. كانَتِ الجدَّةُ تُحَدِّثُهم عن عَمَلِيَّةِ صِهْرِها، قائلةً بصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ جدًّا: «أَرْجو ألَّا تَذْكُروا هذا الأَمْرَ أمامَ الصَّغِيرةِ فهي لا تَعْرِفُه». طبعًا كانَتْ ساردونيا قد سَمِعَتِ الحَديثَ كُلَّه.

أجابَتْها النِّساءُ: «لا نَذْكُرُ لَها طَبْعًا». وَبَعْدَ قلَيلٍ، دَعَتِ السيِّدَةُ كريمةُ حفيدَتَها: «زهرةَ الساردونيا، تعالَيْ يا ابنَتِي».

حينَها قالَتْ إحدى الجاراتِ:

ـ «آ... آ... آ... هَلْ هذا اسمُها الحَقِيقِيُّ؟ ظَنَنْتُ أنَّكِ تمزَحينَ؟».

أجابَتْها السيِّدةُ كريمةُ:

ـ «لا، يا جارتي، أنتِ جَديدةٌ في هذا الحَيِّ، لا تعرفينَ ما الَّذي عانَيْتُه بسبَبِ هذا الأمرِ. لقد أصرَّتْ أُمِّي حينَها على هذا الاسمِ، وكَأَنَّه لَم يَبْقَ هناكَ اسمٌ آخَرُ...».

سَكَتَ الجَميعُ لأنَّ ساردونيا دَخَلَتِ الصالةَ في التَّوِّ. أشارَتْ إحدى النِّساء بِعينِها إلى الأُخرياتِ. كانتْ ساردونيا تَعْرِفُ مَعْنى هذه الإشاراتِ. فالبالغونَ يقومونَ بها إذا أرادوا إِخْفاءَ شَيْءٍ ما، مَعَ أنَّ الأَطْفالَ عندما يَرَوْنَ هذه الحَرَكاتِ يَتَشَوَّقُونَ أَكْثَرَ إلى سَماعِ ما يَدورُ بينَهم.

تَوَجَّهَتْ ساردونيا نَحْوَ الصَّالَةِ بِخُطُواتٍ بَطِيئَةٍ حتَّى وَصَلَتْ إلى وَسَطِها. كانَتِ النساءُ والأَطْفالُ يَنْظُرون إليها بفُضولٍ. حتَّى الطِّفْلُ الَّذي كان يَبْكي سَكَتَ، وَبَدَأَ يَنْظُرُ إليها. شَعَرَتْ زَهْرَةُ الساردونيا المِسْكينَةُ كَأنَّها فَضائِيَّةٌ نَزَلَتْ على الأَرْضِ مِن كَوْكَبٍ آخَرَ...

نادَتْها جَدَّتُها:

ـ «تعالَيْ يا ابنتي، لا تَخْجَلي، الجَميعُ يَسْأَلون عَنْكِ».

قالَتْ إحدى الحاضِراتِ:

ـ «ما شاءَ اللهُ، ما أَجْمَلَها مِن فَتاةٍ»! وهَزَّتِ الباقياتُ رُؤوسَهنَّ مؤيِّداتٍ قَوْلَها.

أَلْقَتْ ساردونيا نَظْرَةً على الأَطْفالِ. كانَ الجميعُ أَصْغَرَ منها، والطِّفْلُ الَّذي كان يَبْكي نَزَلَ وَبَدَأَ يَحْبُو على الأَرْضِ.

التَفَتَتِ امرأَةٌ سَمِينَةٌ إليها وقالَتْ لها:

ـ «هيَّا أَخْبِرينا: كيفَ حالُكِ؟ وماذا تَفْعَلين؟».

أجابَتِ الجَدَّةُ عن حفيدَتِها بقَوْلِها:

ـ «إنَّها لا تَتَوَقَّفُ عن قِراءةِ الكُتُبِ. أقولُ لها إنَّها ستَضُرُّ عينَيها، لكنَّها لا تُعْطي بالًا لِمَا أقولُه».

ـ «ما شاءَ اللهُ، ما شاءَ اللهُ»!

فَجْأَةً، بَدَأَ الطِّفْلُ الصغيرُ بالسُّعالِ. لقد وَضَعَ شيئًا في فَمِه من دونِ أن يَنْتَبِهَ له أَحَدٌ. كادَ يَخْتَنِقُ، فَهَرَعَتِ النِّساءُ إليهِ، وإذْ بِهِ وَضَعَ قِطْعَةً مِنَ الحَلْوى في فَمِه. بَعْدَ دَقائقَ مَعْدودةٍ، عادَ تَنَفُّسُه إلى طَبيعتِه. في هذه الأثناءِ، كانَتْ ساردونيا قد وَجَدَتِ الفُرصَةَ للفِرارِ إلى غُرْفَتِها.

دَخَلَتْ ساردونيا الغُرْفَةَ وَأَغْلَقَتِ البابَ. بدا كُلُّ شَيْءٍ في الغُرْفَةِ كأنَّه في غَفْوَةٍ، ويُمْكِنُ أن يَسْتَيْقِظَ في أيِّ لَحْظَةٍ... كَمَا في الحِكاياتِ. أَخْرَجَتِ الكُرَةَ الأَرْضِيَّةَ مِن داخِلِ ساعةِ الحائطِ، وفَرَكَتْها فَصَدَرَ صَوْتُ الموسيقى. لكنَّ الصَّوْتَ في هذه المَرَّةِ كانَ أضعفَ، وكأنَّ الكُرَةَ الأَرْضِيَّةَ قَدْ فَقَدَتْ طاقتَها. ولبُرْهَةٍ، خَطَرَ في بالِها أَمْرٌ وَهُوَ أَنَّه لَعَلَّ هناكَ سَبَبًا خَفِيًّا لعثُورِها على هذهِ الكُرَةِ في المَكْتَبةِ. فالكُرةُ كانَتْ تأخُذُ طاقةً مِن الكُتُبِ، وكانَتْ حِجارَتُها تُضيءُ بوجودِ القِصَصِ والحِكاياتِ والرِّواياتِ وكُتُبِ الأَشْعارِ. إذا كانَ الأَمْرُ كذلكَ،

فهذا يَعْنِي أنَّ الكُرَةَ تُرِكَتْ في مَكْتَبةِ المَدْرَسَةِ لِتَحْصُلَ على الطاقةِ لا غَيْرُ. فعندَما أَخَذَتْها ساردونيا إلى بَيْتِها لم يَكُنْ هناكَ أيُّ مُشْكِلَةٍ، فغُرفتُها مليئةٌ بالكُتُبِ.

لكنَّ الوَضْعَ مُخْتَلِفٌ هنا، فالسيِّدةُ كريمةُ والسيِّدُ كاملٌ لا يَقْرَآنِ قِصَّةً أو روايةً أو شِعْرًا. ولا يوجدُ في الرفوفِ إلَّا تُحَفٌ وَصُوَرٌ قديمةٌ. لهذا فَقَدَتِ الكُرةُ السِّحْريَّةُ طاقتَها هنا. وهذا يَعْنِي أنَّها تَضْعُفُ في المَكانِ الَّذي تَقِلُّ فيه الكُتُبُ، فتَفْقِدُ سِحْرَها.

اقترَبَتْ ساردونيا مِنَ النافِذَةِ وهي تُفَكِّرُ. نَظَرَتْ إلى الخارجِ، وإذْ بأَحَدِهم يُراقبُها مِن بَيْنِ أغصانِ الشَّجَرِ. إنَّها فَتاةٌ لم تَرَها ساردونيا مِن قَبْلُ، وَقَفَتْ تُراقِبُ ساردونيا بِدِقَّةٍ مُتَناهِيَةٍ. كانَتْ عينا البِنْتِ مُخْتَلِفَتَيْنِ. نَظَرَتْ إليها ساردونيا بِدَهْشَةٍ. نعمْ، إنَّ ما رَأَتْه لم يَكُنْ خيالًا. إنَّ عَيْنَيْ هذه الفَتاةِ كَبيرتانِ ووردِيَّتانِ مِثْلُ عُيونِ الأرانِبِ. وبدا شَعَرُها الأَزْرَقُ الطَّويلُ المُنْسَدِلُ والنّاعِمُ كَأَنَّه مَعْقُودٌ بحَبْلٍ رُبِطَ مِنَ الأعْلى. أُذُناها مَعْقُوفَتان وأنفُها رَفيعٌ ومُسْتَقيمٌ. أمَّا خدّاها، فكانا مَليئَين بِنَمَشٍ مُلَوَّنٍ. عندما أَمْعَنَتِ النَّظَرَ إلَيْها، لاحَظَتْ أنَّها تُشْبِهُ دُمْيَةً غَريبةً، أو لَوْحَةً جُنُونِيَّةً لرسّامٍ ما. هَمَسَتْ ساردونيا بِتَعَجُّبٍ: البِنْتُ المَرْسُومَةُ!

أَصدِقاءُ جُدُدٌ

فَتَحَتْ ساردونيا النافِذَةَ وَقَفَزَتْ إلى حَدِيقَةِ المَنْزِلِ. اقْتَرَبَتِ الفَتاةُ إليها خائِفَةً، بخُطُواتٍ بَطِيئةٍ. كان عُمْرُها عَشْرَ سَنَواتٍ أو إحْدى عَشَرَةَ سنةً. بَشَرَتُها ناصِعَةُ البَياضِ، كَأَنَّها غُطِّستْ في كيسِ دَقيقٍ، وفي مِعْصَمِها سِوارٌ عريضٌ فيه كُرَةٌ لامِعَةٌ، ونُسِجَ على أَحَدِ جانِبَيْه بالخَيْطِ الأَزْرَقِ، وفي الجانِبِ الآخَرِ بالخَيْطِ الأَخْضَرِ.

سَأَلَتْها ساردونيا:

ـ «مَن أنتِ؟».

ـ «اسمي زَهْراءُ».

سَأَلَتْها ساردونيا ثانِيَةً، وهي تُشيرُ إلى الحَيِّ:

ـ «في أيِّ بَيْتٍ تَسْكُنينَ».

ـ «نحنُ لا نَسْكُنُ هنا. لَسْنا مِن هذه الضاحِيَةِ».

ـ «هل قُلْتِ: نَحْنُ؟».

ـ «نعم، أنا وأخي».

ثم أشارَتْ إلى شَجَرَةِ الكُمَّثْرى.

كانَ خَلْفَ الشَّجَرَةِ وَلَدٌ صَغيرٌ لا يَتَجاوَزُ عُمْرُه عَشْرَ سَنَواتٍ. قصيرٌ وسَمينٌ، شَعَرُه أَسْوَدُ مجعَّدٌ. كَأَنَّهُ يُشْبِهُ مغنِّيًا طائِشًا، لكنَّه كانَ خَجولًا. خَرَجَ مِن مَخْبَئِه وتَقَدَّمَ عدَّةَ خُطُواتٍ قَلِقًا.

قالَتْ لَهُ ساردونيا:

ـ «مَرْحَبًا».

ـ «مر... ر... ر... حَبًا».

تَدَخَّلَتْ أُخْتُه في الكَلامِ:

ـ «إنَّ أخي يُتَأْتِئ في كَلامِهِ».

نَظَرَتْ ساردونيا إليه وَقَدْ أثارَ اهتِمامَها، فلم تُقابِلْ شَخْصًا مُتَأْتِئًا مِن قَبْلُ. وهيَ الوَحيدَةُ التي كانَتْ مُمَيَّزَةً في كُلِّ المُجْتَمعاتِ التي وُجِدَتْ فيها. هذه هي المَرَّةُ الأُولى التي

تُقابِلُ فيها شَخْصًا مُخْتَلِفًا مِثْلَها. لَعَلَّ الجَميعَ مُخْتَلِفٌ، لكنَّ الإنسانَ لا يُدْرِكُ هذا بسُرْعَةٍ.

ـ «اسْمي آصوتاي».

ـ «لم أَسْمَعْ باسْمٍ كهذا مِن قَبْلُ».

ذَكَرَتْ ساردونيا هذه الجُمْلَةَ، فاحْمَرَّ وَجْهُها مِنَ الخَجَلِ، لأنَّها كانَتْ دائمًا تَسْمَعُ هذه الجُمْلَةَ، ولم تَذْكُرْها هي أَبَدًا، على الرَّغْمِ من أنَّها تَعْرِفُ أنَّه يَنْبَغي لها ألَّا تَذْكُرَ شَيْئًا يُزْعِجُها لِلْآخَرينَ. لحُسْنِ الحَظِّ، لمْ يَنْتَبِهِ الوَلَدُ».

نَفَضَ الصَّبِيُّ كَتِفَيْهِ وقالَ:

ـ «مِنَ المممممم... المُمْكِنِ أنَّكِ لَمْ تَسْمَعي بهذا الاسمِ، لكنَّه اسمممم... اسمي».

ـ «اعْذُرْني، لمْ أَقْصِدِ الإساءةَ. في الحَقيقةِ، الجَميعُ يَقولُ إنَّ اسمي غَريبٌ. اسمي زَهْرَةُ الساردونيا».

هنا، قالَتِ الفَتاةُ زَهْراءُ:

ـ «ما أَجْمَلَ اسمَكِ»

هَزَّ آصوتاي رأسَه بأنْ «نعمْ».

لَمْ تُصَدِّقْ ساردونيا ما سَمِعَتْه أُذُناها. أوَّلَ مَرَّةٍ يُقالُ لها إنَّ اسمَها جَميلٌ.

ـ «عندي فُضولٌ لِمَعْرِفَةِ اسمِكَ. ما معنى آصوتاي؟».

ـ «صَغيرُ الحِصانِ العَصَبِيُّ. لكنْ، أظنُّ أنَّني لَسْتُ عَصَبِيَّ المِزاجِ».

ابتسمَتْ ساردونيا وقالت:

ـ «سُرِرْتُ بلِقائِكما. مِن أينَ أنتما قادِمانِ».

أشارَتْ زَهْراءُ بيَدِها إلى البَعيدِ، وقالَتْ:

ـ «مِن بَلَدِ أَفْهِما».

ـ «بَلَدُ ماذا؟! هل تَقْصِدينَ بَلَدَ الأساطيرِ والقِصَصِ والحِكاياتِ؟! ليس هناكَ مَكانٌ بهذا الاسمِ، فمَعْلُوماتي الجُغْرافيَّةُ جَيِّدَةٌ».

نَفَضَتْ زَهْراءُ كَتِفَها في هذه المَرَّةِ، وقالَتْ:

ـ «ربَّما لم تَصِلوا إلى هذا المَوْضوعِ في دُروسِكم».

فكَّرَتْ ساردونيا قليلًا، ثم قالَتْ:

ـ «حَسَنًا... حَدِّثيني عن هذا المكانِ، وبماذا يَشْتَهِرُ».

حينَها، ذَبُلَ وَجْهُ زَهْراءَ الجَميلُ:

ـ «لَمْ يَعُدْ بَلَدُنا كَمَا كانَ مِن قَبْلُ. كان، قَديمًا، يَكْسوه

اللَّونُ الأَخْضَرُ. مِياهُه رَقْراقَةٌ، وتعيشُ فيه الجِنِّيَّاتُ والتِّنِّينُ، لكنَّه الآنَ في زَوالٍ مُسْتَمِرٍّ».

ـ «الجِنِّيَّاتُ والتِّنِّينُ! ما هذا الهُراءُ؟!».

ـ «يُمْكِنُ أَلَّا تُصَدِّقي كَلامي، كما أَنَّك لا تصدِّقينَ الحِكاياتِ. لَكنْ، هل يمكنُك أن ترفُضي وجودَ الحكاياتِ؟ لا، طبعًا، وبلدُنا كذلك. كلُّ الحِكاياتِ التي تسمعونَها إنَّما انتَشَرَتْ مِن هناكَ إلى العالَمِ».

ـ «وكيفَ ذلكَ؟!».

أَكْمَلَتْ زَهْراءُ شَرْحَ المَوْضوعِ لساردونيا:

ـ «في البِدايةِ، نخرُجُ ونجمعُ أفكارًا مُتَعَدِّدةً مِن بلادٍ كثيرةٍ، ثم نَضَعُها في الأكياسِ الكَبيرَةِ التي نحمِلُها مَعَنا. نملأُها حَرْفًا حَرْفًا، ونسمِّيها مادَّةً خامًا قَيْدَ التَّشْغيلِ».

سَأَلَتْها ساردونيا بِلَهْفَةٍ:

ـ «ماذا بَعْدَ ذلكَ؟».

ـ «ثمَّ نعودُ إلى بَلَدِنا. لدينا هناكَ مُعَسْكَرُ الفِكْرِ الأَبْجَدِيِّ. نَنْعَزِلُ في هذا المُعَسْكَرِ ونقومُ بتَقْويمِ الأفكارِ التي جَمَعْناها. نَعْمَلُ عليها لتَظْهَرَ لدينا قِصَصٌ وحِكاياتٌ ورِواياتٌ جَديدةٌ. هناكَ صَداقةٌ حَميمَةٌ دامَتْ طويلًا بين بَلَدِنا والبلادِ الأُخرى، أَوِ

الأَصَحُّ كانَتْ هُناكَ صَداقةٌ حَميمَةٌ فيما بينَها».

ـ «حَسَنًا، ما الَّذي تَغَيَّرَ؟ لماذا بَدَأَ بَلَدُكم يَجِفُّ ويَزولُ؟».

تَنَهَّدَتْ زَهْراءُ وأجابَتْ:

ـ «سَأَشْرَحُ لكِ الأَمْرَ: كُلَّما قَرَأَ طِفْلٌ كِتابًا بحُبٍّ، وكلَّما قَصَّ أَحَدُ البالغين قِصَّةً أو حِكايةً، وكلَّما وُلِدَ رَأْيٌ جَديدٌ، تَتَفَتَّحُ زَهْرَةٌ ويُغَرِّدُ عُصفورٌ في القارَّةِ الثامِنَةِ مِن هذا العالَمِ، أو تَسِيلُ مِياهُ الشلّالِ. كُلُّ ما يَحْدُثُ هنا يُؤَثِّرُ فينا».

رَفَعَتْ ساردونيا حاجِبَيها باسْتِغْرابٍ. وبَيْنَما كانتْ سَتَعْتَرِضُ على كَلامِ زَهْراءَ لِتقولَ لها: «لكنَّ هناكَ سَبْعَ قارّاتٍ في هذا العالَمِ»، خَطَرَ في بالِها مُجَسَّمُ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ، وَبَدَأَتْ تُفَكِّرُ: هلِ المَكانُ الَّذي تَتَحَدَّثُ عنه زهراءُ هو البُقْعَةُ السَّوْداءُ المَوْجودَةُ في مُجَسَّمِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ. حَسَنًا... إن كانتْ هناكَ قارَّةٌ ثامنةٌ، فلماذا لَمْ تَذْكُرْ لهم معلِّمَتُها ليلى هذه المَعْلُومَةَ؟ هَلْ هي أيضًا لا تَعْرِفُ هذا المَكانَ؟!

ـ «ولماذا فَسَدَتِ العلاقاتُ بين البلادِ؟».

ـ «القِصَّةُ يا عزيزتي: لَمْ يَعُدِ الأَوْلادُ يَقْرأونَ الكُتُبَ كما كانوا عَلَيْه في الماضي، ولا يَبْنُون أَحْلامًا، فهم يَلْعَبُون بـ «الحَواسِيبِ»، لا غيرُ».

صَحَّحَتْ ساردونيا خَطَأَها بِلُطْفٍ، وقالَتْ:

ـ «حَواسيبُ. . . أنا أَيْضًا أُحِبُّ أَلْعابَ الحاسوبِ».

ـ «لِيَلْعَبوا، لا مانِعَ في ذلكَ، لَكِنْ لِيَقْرَأوا الكُتُبَ أيضًا، فالإنسانُ يَحْتاجُ إلى قُوَّةِ الخَيالِ، كما يَحْتاجُ إلى الخُبْزِ، وإلى الماءِ. كان الأطفالُ يَعِيشونَ مُغامراتٍ في الماضي؛ يَلْعَبونَ في الأَحْياءِ؛ يَبْنونَ الأَحْلامَ ويَغُوصون في عالَمِ الخَيالِ، لِيَكونوا قراصِنةً أحيانًا، ورعاةَ بَقَرٍ أحيانًا أُخرى، أو رُبَّما فضائيِّينَ. أمَّا الآنَ، فلا يُسمَحُ لهم بالخُروجِ. ما الَّذي يُمْكِنُهم القيامُ به في البَيْتِ؟ إمَّا اللَّعِبُ بالألعابِ الإلكترونيَّةِ، وإمّا مُشاهَدَةُ التِّلفازِ».

«هذا صَحيحٌ» قالَتْ ساردونيا، وأضافَتْ: «يَقولُ أبي دائمًا: لَقَدْ أَمْضَيْنا طُفولَتَنا في الحَيِّ. كنَّا لا نَدْخُلُ البَيْتَ أبدًا، وكانت أُمُّنا تَصْرُخُ عَلَينا: هيَّا عودوا إلى البَيْتِ. ولمَّا يَحِلُّ الظَّلامُ ونَشْعُرُ بالجُوعِ، حينَها نَرْجِعُ إلى البَيْتِ. كما يقولُ: إنَّ أولادَ اليوم لا يقومون بذلكَ. أُريدُ أن أَشْرَحَ هذا لأُمِّي، لكنَّها لا تَقبَلُ، وتبقى مُصِرَّةً على كَلامِها: بأنَّ الطَّماطِمَ في هذا الزَّمَنِ لا رائحةَ لها».

نَظَرَ الأَخوان إلى ساردونيا بِدَهْشَةٍ، فَأَكْمَلَتْ كلامَها:

ـ «كيفَ يُمْكِنُ أن تَتَطَوَّرَ قُوَّةُ الخَيالِ لدى الطفلِ الَّذي لا

يقرأُ كتابًا، ولا يلعبُ في الحيِّ؟».

ـ «أنتِ على حقٍّ: إذا اخْتَفَتِ الأفكارُ الإبداعيَّةُ فستَتَحَوَّلُ القارَّةُ الثامِنَةُ إلى صَحْراءَ. سَتَجِفُّ الأنهارُ، وتَتَوَقَّفُ الأشجارُ عن إِيناعِ الثِّمارِ، ويَنْتَشِرُ الجُوعُ والقَحْطُ. وحينَها، لن يَصِلَ إِلَيْكُمْ منَّا أيُّ قِصَصٍ أو حِكاياتٍ أو أساطيرَ. ومعَ الزَّمَنِ، تَتَأَثَّرُ المَناطِقُ الأُخرى أيضًا في العالَمِ، ويَجِفُّ كلُّ مَكانٍ».

ـ «يا لَهُ مِن أَمْرٍ رَهيبٍ».

ـ «علينا أن نَفْعَلَ شَيْئًا قبل أن تَنْتَهِيَ الأمورُ بقارَّتِنا إلى الزَّوالِ. عَلَينا أن نُنْقِذَ قارَّتَنا. ولِهذا بَدَأْنا في رحلتِنا. تَجَوَّلْنا وأخي في الشَّرْقِ والغَرْبِ، وجَمَعْنا الكَثيرَ مِنَ الأفكارِ».

لاحَظَتْ ساردونيا حينَها أنَّ هناكَ أَكْياسًا كَبيرةً تَقِفُ على حافَّةِ الجِدارِ، كانَتْ مَلِيئَةً بالأَحْرُفِ المُلَوَّنَةِ.

ـ «علينا أَنْ نَأْخُذَها إلى بَلَدِنا في أَقْرَبِ وَقْتٍ. ستَنتُجُ منها قِصَصٌ وحِكاياتٌ وأَشْعارٌ جَديدةٌ، ثُمَّ ستَنْتَشِرُ في كلِّ أَرْجاءِ العالَمِ».

ـ «ما لَمْ أَفْهَمْه: لِماذا لا تُنْتِجُونَ أفكارَكُمْ بأنفسِكُمْ».

اِحمَرَّ وَجْهُ زهراءَ. كان واضِحًا أنّ هذا الموضوعَ يُزْعِجُها:

ـ «صحيحٌ أنَّنا نَحْنُ نُؤلِّفُ القِصَصَ والحِكاياتِ والأساطِيرَ، لكنْ مِنَ الصَّعْبِ أنْ نَجِدَ الفِكْرَةَ الرئيسةَ لها. فنحن لَسْنا مُبْدِعينَ مِثْلَكم، ولا نَمْلِكُ مَهارَةً كهذه».

ـ «أَظُنُّ أنَّ الجَميعَ مُبدِعون. نعمْ، لَسْنا نحنُ فقطْ».

كانت ساردونيا تَسْمَعُها بِتَشَوُّقٍ. لم تَقْتَنِعْ بالأَمْرِ، وفَجْأَةً راوَدَها سُؤالٌ آخَرُ:

ـ «وما الذي تَفْعَلانِهِ في بُستانِ جَدَّتي»؟

ـ «كنَّا نتبَعُ الكُرةَ. كان الأمرُ صعبًا، فالإشاراتُ هنا ضَعيفةٌ».

تعجَّبَتْ ساردونيا وقالت: «الإشاراتُ»! ثمَّ لَفَتَ نظرَها السِّوارُ الَّذي في يدِ الفَتاةِ. فَقَدْ كانَتِ الكُرةُ الزُّجاجيَّةُ المَوْجودةُ عليهِ تَتَغَيَّرُ ألوانُها كلَّما ضَرَبَتْها أشِعَّةُ الشَّمسِ.

ـ «نعمْ، إنَّ الكُرةَ السِّحْريَّةَ تُرسلُ إلينا إشاراتٍ إشعاعيَّةً، يأخُذُ كُلُّ مَن يَخْرُجُ منَ البَلَدِ واحدةً منها كي لا يَفْقِدَ طريقَه. وعندما وَصَلْتُ إلى هُنا وَضَعْتُها خَلْفَ الكُتُبِ كي لا تَنْتَهِيَ طاقَتُها، بعدَ ذلك، يُمكِنُنا أن نَجِدَ طريقَنا عَبْرَ الإشاراتِ التي نَأْخُذُها منها مِن خلالِ الخريطَةِ التي يُظْهِرُها السِّوارُ. فإذا ضَعُفَتْ طاقةُ الكُرَةِ وَجُبَ عَلَيْنا أن نُزَوِّدَها بالطَّاقَةِ، وذلك بِوَضْعِها بين الكُتُبِ».

أَكْمَلَ أخوها كلامَها:

ـ «عندما كانَتِ الكُرةُ في بيتِك في إسطنبولَ، كنَّا نَعْرِفُ مكانَها، لَكنَّ الإشاراتِ أَصْبَحَتْ ضَعيفةً بعدَ مجيئِك إلى هنا، ولَمْ نَسْتَطِعِ الوُصولَ إليها إلَّا بصُعوبةٍ».

ـ «أَجَلْ... ففي غُرفتي الكَثيرُ مِنَ الكُتُبِ، لكنْ ليس هُناكَ كُتُبٌ في بَيْتِ جَدَّتي. لَقَدْ لاحظتُ أنا أيضًا أنَّ ضَوْءَها خَفَّ بَعْدَ مَجيئِنا إلى هنا».

ـ «نعمْ، إنَّ الكُرَةَ تَزْداد طاقَةً بينَ الكُتُبِ».

ـ «الآنَ، فَهِمْتُ... أَنْتُمْ مَنْ وَضَعَها في مَكْتَبَةِ المَدْرَسَةِ».

هَزَّ أصوتاي رَأْسَه، وقالَ:

ـ «عُدْنا لِتَفَقُّدِها، لَكِنَّنا لَمْ نَجِدْها».

استَمَرَّت زَهْراءُ:

ـ «لا نَسْتَطيعُ العَوْدَةَ إلى بَلَدِنا من دونِ الإشاراتِ الَّتي تُرسِلُها الكُرَةُ إلى السِّوارِ، ولا يُمْكِنُنا أن نَجِدَ وِجْهَتَنا، ومُنْذُ أيّامٍ نَبْحَثُ عَنْها لنُزَوِّدَها بالطَّاقةِ».

حَزِنَتْ ساردونيا:

ـ «أنا آسِفَةٌ، لَقَدْ سَبَّبْتُ لَكُما كُلَّ هذه المَتاعِبِ. ما كانَ يَجِبُ عَلَيَّ أن أُخْرِجَها مِنَ المَكْتَبَةِ. لا حَقَّ لي في ذٰلِكَ».

قالَ أصوتاي:

ـ «لَقَدْ حَدَثَ ما حَدَثَ. غَضِبْنا مِنْكِ في البِدايَةِ، لَكِنَّنا لَسْنا مُسْتاءَيْنِ مِنْكِ».

ـ «لَقَدْ سَبَّبْتُ الأَذى لَكُما دونَ إرادَتي، لَكِنِّي سأُساعِدُكما لأتَدارَكَ خَطَئي، أنا أيضًا قادِمَةٌ مَعَكُما».

قَطَّبتْ زَهْراءُ جَبِينَها:

ـ «يُمْكِنُنا المَجيءُ مِن بَلَدِنا إلى هُنا بسهُولَةٍ. أمَّا العَوْدَةُ، فَعَلى العَكْسِ تَمامًا، صَعْبَةٌ جِدًّا».

أَلَحَّتْ ساردونيا قائلَةً:

ـ «أَلَيْسَ هُناكَ مَنْ يَذْهَبُ إلى ذلكَ البَلَدِ مِن هُنا؟».

ـ «نعمْ، هُناكَ مَن قاموا بذلك».

ـ «ومَن هُم؟».

ـ «الشُّعَراءُ والمُؤَلِّفونَ ومُخْرِجو الأفلام والرَّسَّامونَ والمُوسِيقيُّونَ... نَعَمْ... هذا بالإضافَةِ إلى الأطفالِ. ومِنَ المَعْلومِ أنَّ الأطفالَ هُمْ مَنْ يَبْنونَ أَجْمَلَ الأحلامِ».

ـ «هذا يَعْني أنَّ هذا مُمْكِنٌ. ومَنْ هؤلاء الأطفالُ؟!».

ـ «يَقومُ الأَطْفالُ الَّذين يَملِكُونَ خَيالًا واسِعًا بِزِيارةِ بَلَدِنا. كَمَا يُمْكِنُ لِمَنْ وَجَدَ مُجَسَّمَ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ أن يَزورَنا أيضًا».

سُرَّتْ ساردونيا بسَماعِها هذا الكلامَ، وقالَتْ:

ـ «مِثلِي يَعْني».

ـ «نَعَمْ، مِثلُك. لٰكِنْ أَرْجوكِ اسْمَعيني جَيِّدًا: قَدْ يكونُ هذا الأَمْرُ خطيرًا، فَهُناكَ الكَثيرُ مِنَ المَصاعبِ التي يُمْكِنُ أن نُواجِهَها في رِحْلَتِنا هذه».

صَرَخَتْ ساردونيا فَرِحَةً من دونِ أنْ تُعطِيَ بالًا لِما يُقالُ:

ـ «هذا رائعٌ... هيَّا، لِنَذْهَبْ، إذن».

تبادَلَتْ زهراءُ وأصوتاي نَظَراتِ القَلَقِ، لَكنَّ ساردونيا كانَتْ قَدْ شَقَّتْ طريقَها وتَقَدَّمَتْهما.

قُوَّةُ الكُتُبِ

قَفَزَتْ ساردونيا مِنَ النافِذَةِ وعادَتْ إلى الغُرْفَةِ. فَتَحَتْ ساعَةَ الحائطِ وتناوَلَتْ مُجَسَّمَ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ السِّحْرِيَّةِ التي خَبَّأَتْها فيها. كانَتْ أصواتُ جَدَّتِها وجاراتِها تصِلُ إليها مِنَ الصالةِ. ومن دونِ أن تُضَيِّعَ وَقْتًا، رَجَعَتْ إلى البُسْتانِ. عِنْدَما رَأَتْها زَهْراءُ صاحَتْ بحَماسَةٍ:

ـ «كُرَتُنا».

كانَ الضَّوْءُ يُضِيءُ خافِتًا مِنَ الحِجارَةِ المَصْفُوفَةِ على الكُرَةِ.

أصوتاي:

ـ «المِسْكينَةُ... لَقَدِ انْتَهَتْ طاقَتُها».

أجابَتْ ساردونيا:

ـ «انْتَهَتْ طاقَتُها مِثْلَ الهاتِفِ النّقّالِ. عَلَيْنا أن نَشْحَنَ الكُرَةَ. لَكِنَّها تَحْتاجُ إلى الكُتُبِ بَدَلًا مِنَ الكَهْرباءِ، إذن».

ـ «الهاتِفُ النَّقّالُ!! أهااا، نعَمْ، تَذَكَّرْتُه».

سَأَلَتْ ساردونيا مُسْتَغْرِبَةً:

ـ «أَلَا تَسْتَخْدِمونَ الهاتِفَ النَّقّالَ؟!».

ـ «لا».

ـ «هَلْ أَنْتِ جادَّةٌ. الجَميعُ هُنا يَسْتَخْدِمونَ الهاتِفَ النَّقّالَ، وحتَّى الأَطْفالُ. وعَبْرَه نَتَواصَلُ وَنَتَبادَلُ الأخْبارَ. وأَنْتُمْ، كَيْفَ تَتَواصَلُونَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا؟».

ـ «عَبْرَ أَفْكارِنا».

حانَ دَوْرُ ساردونيا في التَّعَجُّبِ، إلَّا أَنَّ زَهْراءَ قاطَعَتْها قَبْلَ أن تَسْأَلَ سُؤالًا آخَرَ، قائِلَةً:

ـ «أَيْنَ يُمْكِنُنا أَنْ نَجِدَ مَكانًا فيه عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ الكُتُبِ في هذه الضَّاحِيَةِ؟».

ـ «لا يُوجَدُ لدى جَدَّتي، وكذا في بَيْتِ جيرانِها، لَكِنَّني مُتَأَكِّدَةٌ من أنَّ هُناكَ كثيرًا مِنَ التلاميذِ الَّذين يُحِبُّونَ القِراءَةَ، إلَّا أنَّه لَيْسَ مِنَ اللّائِقِ أن نَذْهَبَ إِلَيْهِم من دونِ سابِقِ إنْذارٍ».

تَعَكَّرَ مِزاجُ الجَميعِ، وراحوا يَتَبادَلونَ نَظَراتِ الخَيْبَةِ.

لَكِنَّ زَهْرَةَ الساردونيا، كَمَا أَنَّها كانَتْ عاقِلَةً، كانتْ بارعةً كذلك. لا تَسْتَسْلِمُ تِجاهَ الصُّعوباتِ، بَلْ تُحاوِلُ إيجادَ الحَلِّ المُناسِبِ. وعلى الفَوْرِ، تَلأْلأَ وَجْهُها كَأَنَّ فِكْرَةً أنارَتْ في عَقْلِها:

ـ «وَجَدْتُها... أَعْرِفُ تَمامًا المَكانَ الَّذي عَلَيْنا أن نَذْهَبَ إليه. هَيَّا بِنا».

سَأَلَها أصوتاي: مكتبة t.me/ktabrwaya

ـ «إلى أَيْنَ؟».

لَمَعَتْ عَيْنا ساردونيا وابْتَسَمَتْ:

ـ «لَدَيَّ فِكْرَةٌ، سَتَعودانِ إلى بَلَدِكُما، لَكِنَّنا سَنَشْحَنُ الكُرَةَ أوَّلًا».

كانَتْ قُرْطاسِيَّةُ قوسِ قزحِ القُرْطاسِيَّةَ ـ والمَكْتَبَةَ ـ الوَحِيدَةَ المَوْجودةَ في الضاحِيَةِ تلك. كانَتْ ساردونيا قَدْ ذَهَبَتْ إليها مَرَّتين أو ثلاثًا في صِغَرِها.

أَمْسَكَتْ زَهْراءُ بِيَدِ زَهْرَةِ الساردونيا، وقالَتْ لَها:

ـ «لا أَعْرِفُ مَن في الداخِلِ، ولَكِنْ لا تَتَعَجَّبي أبدًا إن لم يَسْتَطِعْ رُؤْيَتَنا».

ـ «لا يَسْتَطيعُ رُؤْيَتَكُما؟! لِماذا؟».

ـ «لا يَسْتَطيعُ رُؤْيَتَنا إلّا الأَشْخاصُ الَّذين يَجِدون الكُرَةَ السِّحْرِيَّةَ. أمَّا غَيْرُهم، فمِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِم رُؤْيَتُنا. لِهذا، عَلَيْكِ أَنْتِ فقط أن تَتَكَلَّمي مَعَهُ».

ـ «يا إلٰهي»، قالَتْ ساردونيا. في الحَقيقَةِ، هِيَ أَيْضًا كانَتْ تَتَمَنَّى لو أنَّها تَخْتَفي في بَعْضِ الأَحْيانِ ولا يَراها مَنْ حَوْلَها؛ تَتَجَوَّلُ في الأَرْجاء خِفْيَةً، وتَسْتَمِعُ إلى النَّاسِ، وتَتَمَكَّنُ مِن دُخولِ المَكْتَبَةِ حتَّى لو كانَتْ مُغْلَقَةً، وتَأْكُلُ المُثَلَّجاتِ والشوكولاتَةَ أَمام ناظِرَيْ أُمِّها ومِنْ دُونِ أَنْ تراها.

بينَما كانَتْ تُفَكِّرُ في هذا كُلِّه، فَتَحَتِ البابَ. كانَ الدُّكَّانُ مَليئًا بالأَلْوانِ والدَّفاتِرِ والأَوْراقِ والبِطاقاتِ والأَقْلامِ والصُّوَرِ اللَّاصِقَةِ واللُّعَبِ. والأَلْوانُ كُلُّها كانَتْ مَصْفُوفَةً على الرُّفوفِ. وفي أَحَدِ الجُدْرانِ، كانَتْ مَكْتَبَةٌ تُغَطِّي الحائِطَ كُلَّه. كانَتْ هٰذِهِ الكُتُبُ كُتُبًا مَدْرَسِيَّةً على العُمومِ، يَتَخَلَّلُها بَعْضُ الكُتُبِ الأَدَبِيَّةِ، مِثْلِ الرِّواياتِ والحِكاياتِ والأَشْعارِ... مُعْظَمُ الزَّبائِنِ كانوا مِنَ التَّلاميذِ، يُشارِكُهُم رَبّاتُ المَنازِلِ والمُوَظَّفونَ ومُوَظَّفو المَصارِفِ، إِذْ كانوا يَأْتُونَ لِشِراءِ الرِّوايات. لَقَدْ أَصْبَحَ صاحِبُ الدُّكَّانِ السَّيِّدُ نَظْمي عَجُوزًا. وعلى الرَّغْمِ من ذلكَ، فإنَّه كانَ قارِئًا جَيِّدًا. كانَ يُحْضِرُ صُندوقَ كُتُبٍ مِنَ المَدِينَةِ كُلَّ شَهْرٍ.

كانَ السيِّدُ نَظْمِي هذا اليَوْمَ جالِسًا خَلْفَ الطاوِلَةِ، وَقَدْ غَرِقَ في قِراءَةِ الصَّحيفَةِ. وعِنْدَما فُتِحَ البابُ تَوَقَّفَ، وقالَ:

ـ «مَرْحَبًا، كَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أُساعِدَكِ؟».

اِرتَبَكَتْ ساردونيا لَحْظَةً، ثُمَّ أَجابَتْ:

ـ «نَحْنُ... أَقْصِدُ: أنا... الكُرَةُ...».

أَسْكَتَتْها زَهْراءُ قائِلَةً:

ـ «لا!!».

فَقَدِ اتَّفَقوا على أَلَّا يُخْبِروا أَحَدًا بِسَبَبِ مَجيئِهِمْ.

لِحُسْنِ الحَظِّ لَمْ يَفْهَمِ السيِّدُ نَظْمي ما قالَتْهُ. أَنْقَذَتْ ساردونيا المَوْقِفَ، وسَأَلَتْه مُباشَرَةً:

ـ «كُنْتُ أُريدُ السُّؤالَ عَنْ كِتابِ «جَزيرةِ الكَنْزِ». هَلْ لَدَيْكُمْ هذا الكِتابُ؟

ـ «نَعَمْ، بالتَّأْكيدِ. إنَّها رِوايَةٌ رائِعَةٌ، كُنْتُ أُحِبُّها كَثيرًا في صِغَري».

عِنْدَما رَأَتْ ساردونيا السَّيِّدَ نَظْمي يَتَّجِهُ نَحْوَ الكُتُبِ، قالَتْ:

ـ «يَلْزَمُني ثَلاثُ نُسَخٍ مِنْهُ».

ـ «ثلاثُ نُسَخٍ؟».

بإصْرارٍ قالَتْ له ساردونيا: «نعَمْ، ثلاثٌ».

ـ «حَسَنًا. . لا أَعْرِفُ إنْ كانَ يَتَوَفَّرُ لَدَيَّ ثلاثُ نُسَخٍ، سَأَذْهَبُ إلى المَخْزَنِ وأَرى».

شَعَرَتْ ساردونيا بالحُزْنِ لأنَّها اضطُرَّت إلى إتْعابِ الرَّجُلِ العَجوزِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ في اليَدِ حِيلَةٌ. وبمُجَرَّدِ بقائِهِمْ وَحيدِين، أَخْرَجوا الكُرَةَ مِنَ الحَقِيبَةِ وتَوَجَّهوا إلى المَكْتَبَةِ، وحينَما اقْتَرَبُوا مِنَ الكُتُبِ بَدَأَتْ حِجارَتُها تُضيءُ.

قالَتْ زَهْراءُ عِندَئِذٍ:

ـ «أتَرَوْنَ كَيْفَ عادَتْ إِلَيْها الحَياةُ!».

وفي لَمْحِ البَصَرِ، خَبَّأُوا الكُرَةَ خَلْفَ الرِّواياتِ، ووَضَعوا أمامَها كتابًا عَريضًا باسم «تاريخِ العالَم». ومِن كِلَا الجانبينِ، وَضَعوا بَعْضَ كُتُبِ الفُكاهاتِ تفادِيًا لِحُدوثِ أيِّ شَيْءٍ سَيِّئٍ. والآنَ، أَصْبَحَتِ الكُرَةُ بَعيدَةً عَنِ الأنْظارِ، ولا يَتَوَقَّعُ أَحَدٌ وُجودَ شَيْءٍ هنا.

قالَتْ زَهْراءُ:

ـ «لِنَتْرُكْها تَسْتَرْجِعُ طاقَتَها هُنا».

وَرَدَّ أصوتاي:

ـ «هَيّا لِنَذْهَبْ».

لم تَقْبَلْ ساردونيا الخُروجَ مُباشَرَةً، وقالَتْ:

ـ «وصاحِبُ المَكْتَبَةِ؟!».

وبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ بصَوْتِ وَقْعِ قَدَمَينِ يَقْتَرِبُ نَحْوَهُمْ. لم يَكُنْ لَدَيْهِمْ وَقْتٌ يُضَيِّعُونَهُ، وعلى وَجْهِ السُّرْعَةِ خَرَجوا مِنَ الدُّكّانِ.

خَرَجَ السيِّدُ نَظْمِي مِنَ المَخْزَنِ بَعْدَ قَليلٍ وَهُوَ يَقُول: «لا يُوجَدُ لَدَيْنا إلّا كِتابانِ. إنْ أَرَدْتِ أَطْلُبِ الثالِثَ...».

لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا، فَبَدَأَ يُتَمْتِمُ قائِلًا: «ما الَّذي حَدَثَ». ثمَّ خَرَجَ مِنَ المكتبةِ، ونَظَرَ يَمْنَةً ويَسْرَةً، ولكنْ لا يُوجَدُ في الحَيِّ إلّا الكَلْبُ المِسْكِينُ. عادَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى المَكْتَبَةِ.

ظَنَّ أنَّه رَأى خيالًا، تَنَفَّسَ الصُّعَداءَ وجَلَسَ. مُنْذُ سَنَواتٍ وهو يُديرُ هذِهِ المَكْتَبَةَ ويُحاوِلُ الحُصولَ على لُقْمَةِ العَيْشِ في ظُروفِ الحَياةِ الصَّعْبَةِ، وكَمْ طَلَبَتْ مِنْهُ عائِلَتُهُ أَنْ يَتْرُكَ العَمَلَ ويَسْتَريحَ، غَيْرَ أنَّهُ كانَ يُحِبُّ الكُتُبَ كَثيرًا ويَصْعُبُ عَلَيْهِ مُفارَقَتُها.

جَلَسَ عَلى كُرْسِيٍّ، ووَضَعَ نَظّارَتَهُ وفَتَحَ كِتابَ «جَزيرَةِ الكَنْزِ»، وبدأَ بِقِراءَتِهِ بَعْدَ مُرورِ سَنَواتٍ طَويلَةٍ. بَعْدَ لَحَظاتٍ، رَفَعَ رَأْسَهُ ونَظَرَ إلى الجِهَةِ اليُسْرى مِنَ المَكْتَبَةِ، وَكَأَنَّ بَعْضَ

الكُتُبِ قَدْ تَغَيَّرَ مَكانُها، وازْدادَ النُّورُ في المَكْتَبَةِ. ابْتَسَمَ العَجُوزُ وأَكْمَلَ القِراءَةَ.

ظَلَّ الأَوْلادُ الثَّلاثَةُ يَجْرُونَ بِسُرْعَةٍ من دُونِ تَوَقُّفٍ مُنْذُ خُروجِهِمْ مِنَ المَكْتَبَةِ. كانوا قَلِقينَ عَلى الرَّغْمِ من عَدَمِ وجُودِ مَنْ يُلاحِقُهُمْ. وعِنْدَما شَعَروا بالتَّعَبِ تَوَقَّفوا في زاوِيَةٍ واسْتَعادوا أَنْفاسَهُمْ.

نَظَرَ أصوتاي إلى ساردونيا وَسَأَلَها:

ـ «ما الشَّيْءُ الَّذي في يَدِكِ؟».

ـ «مُذَكِّرتي اليَوْمِيَّةُ. لَقَدْ أَحْضَرْتُها مَعي لأَكْتُبَ فيها ما نُواجِهُهُ مِن أَحْداثٍ غَريبَةٍ».

أشارَتْ زَهْراءُ إلى السِّوارِ في مِعْصَمِها ـ كانَ الحَجَرُ الشفّافُ فيه يَلْمَعُ مِثْلَ النَّجْمِ، والأَغْرَبُ مِن ذٰلِكَ كانَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ خَرِيطَةٌ فيها الغاباتُ والوِدْيانُ والأَنْهارُ ـ وقالَتْ:

ـ «اُنظُرا...».

فَرِحَتْ ساردونيا:

ـ «لِيَحْيَ الذَّكاءُ... لَقَدْ أَجْدى عَمَلُنا... وُجودُ الكُرَةِ بَيْنَ الكُتُبِ يَمْنَحُها الطَّاقَةَ».

صَفَّقت زَهْراءُ فَرَحًا:

ـ «كُلَّما ازْدادَتْ طاقَةُ الكُرَةِ، يَسْتَعِيدُ سِوارِي قُوَّتَهُ، ويَسْتَطيعُ أن يَدُلَّنا على الطَّريقِ».

ابْتَسَمَ أصوتاي ابْتِسامَةَ مَن زالَ عَنْهُ القَلَقُ والتَوَتُّرُ:

ـ «نَسْتَطيعُ العَوْدَةَ إلى بَيْتِنا قَريبًا».

هَمَّتْ ساردونيا وقَالَتْ في عَجَلٍ:

ـ «هَيّا، لَيْسَ لَدَيْنا أيُّ وَقْتٍ نُضَيِّعُه».

ضَحِكَتْ زَهْراءُ:

ـ «القارَّةُ الثّامِنَةُ بَعِيدَةٌ جِدًّا، هَلْ تُفَكِّرينَ في الذَّهابِ إلى هُناكَ مَشْيًا؟».

تَوَقَّفَتْ ساردونيا بُرْهَةً. هٰذا صَحيحٌ، فَهِيَ لَمْ تُفَكِّرْ في هذا أَبَدًا. ثُمَّ قالَتْ:

ـ «حَسَنًا، كَيْفَ سَنَذْهَبُ؟».

أَجابَتْها زَهْراءُ جَوابًا غامِضًا:

ـ «سَتَرينَ...».

وَضَعَتْ زَهْراءُ أَصابِعَها في فَمِها وَصَفَّرَتْ صَفيرًا طَويلًا. في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، ظَهَرَ سَوادانِ في السَّماءِ، وَبِسُرْعَةِ البَرْقِ انْخَفَضا واقْتَرَبا مِنْهُمْ.

لَمْ تُصَدِّقْ ساردونيا عَيْنَيها. إنَّهُما حِصانانِ ذَوَا أَجْنِحَةٍ.

غابةُ الخِياراتِ

كانَ لَوْنُ أَحَدِ الحِصانَيْنِ لَوْنَ الحَليبِ المَمْزوجِ بالشُّوكولاتَةِ، أمَّا الآخَرُ، فكانَ بِلَوْنِ الشُّوكولاتَةِ المَمْزُوجَةِ بالحَليبِ. يَعْني كِلاهُما مِن دَرَجاتِ اللَّوْنِ البُنِّيِّ. رَكِبَتِ البِنْتانِ على أَحَدِهِما، وأصوتاي على الآخَرِ.

بَعْدَ أنِ امْتَطوا الحِصانَيْنِ، قالَتْ زَهْراءُ:

ـ «عِنْدَما نُريدُ التَّحْلِيقَ نُصَفِّقُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ. أمَّا عِنْدَما نُريدُ الهُبوطَ فَنُصَفِّقُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. وما إنْ صَفَّقوا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ حَتَّى وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ يَرْتَفِعونَ في السَّماءِ».

صَرَخَتْ ساردونيا: «يا إلٰهي»، واصْفَرَّ وَجْهُها مِنَ الخَوْفِ، فَتَمَسَّكَتْ بِقُوَّةٍ بجَناحِ الحِصانِ. لَمْ تَكُنْ تَسْتَطيعُ فَتْحَ عَيْنَيْها والنَّظَرَ إلى الأَسْفَلِ، لأَنَّها تَشْعُرُ بالدُّوارِ عِنْدَما تَفْعَلُ ذٰلِكَ.

ـ «أَلا تُحبِّينَ الأَحْصِنَةَ؟».

ـ «أُحِبُّها طَبْعًا، لَكِنِّي أُحِبُّ الأَحْصِنَةَ الَّتي تَجْري، لا الأَحْصِنَةَ الطَّائِرَةَ».

اِنْفَجَرَ أصوتاي وزَهْراءُ ضَحِكًا.

صاحَتْ ساردونيا:

ـ «أَشْعُرُ بالغَثَيانِ. فَمِنَ الناسِ مَنْ يَشْعُرُ بالغَثَيانِ عِنْدَما يَرْكَبُ الحافِلَةَ، ومِنْهُمْ عِنْدَ رُكوبِ السَّفينَةِ. أَمَّا أنا فَعِنْدَما أَرْكَبُ الحِصانَ الطائِرَ».

ـ «لا تَقْلَقي، سَتَتَعَوَّدِينَ خِلالَ دَقائِقَ».

وهٰذا ما حَدَثَ بالفِعْلِ، وإن كانَتْ ساردونيا لا تَسْتَطيعُ التَّصَرُّفَ براحَةٍ، كَما يَفْعَلُ الأَخوانِ، إلَّا أَنَّها تَعَوَّدَتِ الطَّيَرانَ. كانَتْ تَطيرُ فَوْقَ الأَنْهارِ والمُروجِ والجِبالِ. رَأَتِ القُرى والضَّواحِيَ والمُدُنَ. كَما قَفَزوا مِنْ سَطْحِ دارٍ إلى سَطْحِ بِناءٍ، لكِنْ لَمْ يُدْرِكْ أَحَدٌ مِنْ سُكَّانِ الأَرْضِ ما يَحْدُثُ في الأَعْلى. كانَ الناسُ مَشْغولِينَ إلى دَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَرْفَعْ أَحَدُهُمْ رَأْسَهُ ويَنْظُرْ إلى الأَعْلى.

مَرَّتْ أَسْرابُ الطُّيورِ، وَعَبَرَتِ الطّائِراتُ الوَرَقِيَّةُ مِنْ أمامِهِمْ، كَما رَأَتْ نُفّاخَةً قَدْ قُطِعَ حَبْلُها. مَنْ يَدْري مِنْ يَدِ أَيِّ

طِفْلٍ أُفْلِتَتْ هٰذِهِ النُّفّاخَةُ. ثُمَّ اخْتَفوا بَيْنَ الغُيُومِ واسْتَمَرّوا في الارْتِفاعِ، حتَّى رَأَوْا طائِرَةً نَفّاثَةً. أَلْصَقَ الطَّيّارانِ وَجْهَيْهِما عَلى الزُّجاجِ وَبَدَآ يَنْظُرانِ إلى ساردونيا في دَهْشَةٍ، أمَّا هِيَ، فابْتَسَمَتْ لَهُما وَلَوَّحَتْ بِيَدِها. لَنْ يُحَدِّثَ الطَّيّارانِ أَحَدًا بِما شاهَداهُ لأَنَّهُما إنْ فَعَلا ذٰلِكَ فَلَنْ يُصَدِّقَهُما أَحَدٌ، وَسَيُتَّهَمانِ بالجُنونِ.

وأَخيرًا اقْتَرَبا مِنْ بُقْعَةٍ سَوْداءَ وَسَطَ المُحيطِ. ضَحِكَتْ ساردونيا في حَماسَةٍ. كانَ هٰذا المَكانُ يُشْبِهُ المَكانَ الغَريبَ المَوْجُودَ في الكُرَةِ السِّحْرِيَّةِ. يا لَلْهَوْلِ! إنَّهُ يُشْبِهُ الكِتابَ المَفْتُوحَ مِنْ بَعيدٍ كَما هُوَ عَلَيْهِ في الكُرَةِ. الأَنْهارُ والجِبالُ والمُرُوجُ والسُّهُولُ والوِدْيانُ تُثيرُ الاهْتِمامَ. لاحَظَتْ ساردونيا أَمْرًا غَريبًا: كانَ المَكانُ مُغَطًّى بالنَباتِ العُشْبِيِّ الأَخْضَرِ، إلَّا أَنَّ بَعْضَ الأماكِنِ كانَتْ جافَّةً وقاحِلَةً، واخْتَفَتِ الأَلْوانُ فيها تَمامًا.

أشارَتْ زَهْراءُ:

ـ «أَتَرَيْنَ؟ لَقَدْ بَدَأَ الجَفافُ، وَسَيَنْتَشِرُ في كُلِّ مَكانٍ».

صَفَّقوا ثَلاثَ مَرّاتٍ وبَدَأوا بالهُبوطِ، وأَخيرًا، حَطَّ الحِصانانِ عَلى هٰذِهِ الجَزيرَةِ.

قالَتْ زَهْراءُ وَعَيْناها تَلْمَعانِ:

ـ «هُنا مَدْخَلُ بَلَدِنا. يُدْعى هٰذا المَكانُ «غابَةَ الخِيَاراتِ»».

كانَتْ غابَةُ الخِياراتِ مَليئَةً بِأَشْجارٍ مُعَمِّرَةٍ. كانَتِ الأَوْراقُ الجافَّةُ المُتَساقِطَةُ عَلى الأَرْضِ قَدْ غَطَّتِ المَكانَ كَأَنَّها بِساطٌ طَرِيٌّ المَلْمَسِ، جَذّابٌ.

هُنا قالَ أصوتاي:

ـ «سَنُكْمِلُ طَريقَنا مَشْيًا. هُناكَ طَريقٌ مُخْتَصَرٌ إلى العاصِمَةِ الأَبْجَدِيَّةِ».

أَجابَتْ ساردونيا:

ـ «هٰذا رائِعٌ. هيَّا لِنَمْشِ».

وعَلى الفَوْرِ، نَزَلَتْ عَنِ الحِصانِ.

أَمْسَكوا الحِصانينِ مِن لِجامِهِما وساروا نَحْوَ الغابَةِ. هَبَّتْ نَسَماتٌ عَليلَةٌ لامَسَتْ وُجوهَهُمْ. كانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ لا تَدْخُلُ الغابَةَ بِسَبَبِ عُلُوِّ أَشْجارِها وكثافَتِها. لذا كانَتِ الغابَةُ مُظْلِمَةً قليلًا.

فَجأَةً تَوَقَّفَتْ زَهْراءُ وقالَتْ:

ـ «لا... لا يُمْكِنُ هٰذا...».

سَأَلَها الآخَرانِ:

ـ «ماذا حَدَثَ؟».

أَشارَتْ إلى سِوارِها. لَقَدْ بَدَأَ نُورُه يَخِفُّ، وَلَمْ تَعُدِ الخَرِيطَةُ تَبْدُو بِصُورَةٍ جَيِّدَةٍ.

ـ «لا بُدَّ مِنْ أَنَّ أَحَدَهُم رَأى الكُرَةَ، وَأَخَذَها فَأَبْعَدَها عَنِ الكُتُبِ. وهٰذا ما جَعَلَ نُورَها خافِتًا، وتَكادُ طاقَتُها تَخْتَفي».

حَزِنَ أصوتاي:

ـ «ما الَّذي سَنَفْعَلُه الآنَ؟».

أجابَتْ ساردونيا:

ـ «سَنُفَكِّرُ في هٰذا فيما بَعْدُ. عَلَيْنا أَنْ نَتَقَدَّمَ في السَّيْرِ الآنَ».

رَفَعَتْ زَهْراءُ حاجِبَيْها:

ـ «سَنَفْقِدُ طَريقَنا مِنْ دُونِ مُساعَدَةِ الكُرَةِ».

ـ «وَكَيْفَ ذٰلِكَ. أَلَا تَعْرِفينَ الطَّريقَ؟».

ـ «لا، فَنَحْنُ لَمْ نَسِرْ وَحْدَنا أَبَدًا. نَذْهَبُ وَنَعودُ بِفَضْلِ الكُرَةِ. وَبِفَضْلِ الإِشاراتِ التي تُرْسِلُها إِلَيْنا هٰذِهِ الكُرَةُ تُضِيءُ

الخَريطَةُ، فَنَسيرُ وَفْقًا لِهٰذِهِ الخَريطَةِ. ثُمَّ نَظَرَتْ إلى السِّوارِ حَزينَةً وَكانَ نُورُهُ قَدِ اخْتَفى تَمامًا».

أرادَتْ ساردونيا أن تُواسِيَ صَديقَيها فقالَتْ لَهُما:

«أنا مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أنَّنا سَنَجِدُ الطَّريقَ بِأَنْفُسِنا».

تَقَدَّموا مِنْ دُونِ أَنْ يَعْرِفوا الجِهَةَ التي يَجِبُ عَلَيْهِمُ الاتِّجاهُ إِلَيْها. كانَتْ أَصْواتُ حَيَواناتٍ غَريبَةٌ تَأْتي مِنْ أَعْماقِ الغابَةِ. وَكَأَنَّ آلافَ الأَعْيُنِ كانَتْ تُراقِبُهُمْ مِنْ داخِلِ الغابَةِ.

ساروا مُدَّةً طَويلَةً، وتَعِبوا كَثيرًا، وفي مَكانٍ لَيْسَ بَعيدًا، شَدَّتْ أَنظارَهُمْ أَزْهارٌ حَمْراءُ ضَخْمَةٌ.

أَثارَتْ هٰذِهِ الأَزْهارُ فُضولَ ساردونيا الَّتي لَمْ تَرَ فِي حَياتِها زَهْرَةً بِهٰذا الحَجْمِ:

ـ «لَمْ أَرَ زَهْرَةً بِهٰذا الحَجْمِ في حَياتي! هَلْ هِيَ حَقِيقِيَّةٌ؟».

أَضافَتْ زَهْراءُ قائِلَةً:

ـ «ما أَجْمَلَ رائِحَتَها!».

كانَتْ رائِحَةُ أَزْهارٍ شَذِيَّةٌ تَمْلأُ المَكانَ، وعِنْدَما اقْتَرَبوا وَجَدوا أَنَّ عَلى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْراقِ هٰذِهِ الزَّهْرَةِ حَرْفًا يُضِيءُ

كاللُّؤْلُؤِ. وَبَيْنَما هُمْ مُنْدَهِشُونَ بِهٰذا المَنْظَرِ الجَمِيلِ، سَقَطَتْ عِدَّةُ أَوْراقٍ مِنْ تِلْكَ الزَّهْرَةِ. كانَتْ إحْداها تَحْمِلُ حَرْفَ «الطاءِ»، والثانِيَةُ تَحْمِلُ حَرْفَ «الياءِ»، والثَّالِثَةُ تَحْمِلُ حَرْفَ «الرّاءِ». وعِنْدَما اجْتَمَعَتْ هٰذِهِ الأَوْراقُ ظَهَرَ مِنْها طَيْرٌ فائِقُ الجَمالِ، وطارَ مُحَلِّقًا.

قَفَزَتْ ساردونيا مُنْدَهِشَةً:

ـ «انْظُروا إلى هٰذا».

وَعلى الفَوْرِ، سَقَطَتْ أَوْراقٌ أُخْرى. في كُلِّ وَرَقَةٍ حَرْفٌ، وبالتَّرْتِيبِ حُروفُ «الثاءِ» و«العَيْنِ» و«اللّامِ» و«الباءِ». وفي لَحْظَتِها، خَرَجَ ثَعْلَبٌ يَجْري في الغابَةِ.

قالَتْ ساردونيا الَّتي رَأَتْ ذٰلِكَ:

ـ «أَظُنُّ أنَّ هٰذِهِ الزَّهْرَةَ سِحْرِيَّةٌ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ تَكْتُبُها هٰذِهِ الأَحْرُفُ تُصْبِحُ حَقِيقِيَّةً».

حِينَها قالَ أصوتاي:

ـ «أهاا... عِنْدي فِكْرَةٌ».

ثُمَّ جَمَعَ الأَحْرُفَ الَّتي يُريدُها مِنَ الأوْراقِ المُتَساقِطَةِ عَلى الأَرْضِ، ثُمَّ وَضَعَها إلى جانِبِ بَعْضِها البَعْضِ لتُكْتَبَ كَلِمَةُ شُوكولاتَةٍ. فَجْأَةً، ظَهَرَتْ قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشُّوكولاتَةِ،

فَصَفَّقَ الأَوْلادُ بَهْجَةً وَسُرورًا.

أَكْمَلَتْ زَهْراءُ:

ـ «والآنَ، لِنَكْتُبْ كَلِمَةَ: مُثَلَّجاتٍ».

ثُمَّ بَدَأُوا يَكْتُبونَ كَلِماتٍ مُتَتالِيَةً، كَالمُثَلَّجاتِ والحَلْوى والكَعْكِ وغَيْرِها مِنَ المَأْكولاتِ التي يُحِبُّها الأَطْفالُ. تَحَقَّقَتْ جَميعُها، وجَلَسوا وَأَكَلوها كُلَّها.

ضَحِكَ أصوتاي وَهُوَ يَضْرِبُ على بَطْنِهِ الَّذي انْتَفَخَ مِن كَثْرَةِ الأَكْلِ قائِلًا:

ـ «لَقَدْ شَبِعْتُ».

بَعْدَ ذٰلِكَ، قالَتْ ساردونيا:

ـ «هيَّا لِنُطْعِمِ الحِصانَيْنِ أَيْضًا».

ومُباشَرَةً، كَتَبوا تِبْنًا وتُفّاحًا وشَعيرًا وزَبيبًا. صَهَلَ الحِصانانِ عِنْدَما رَأَيا الطَّعامَ المُصْطَفَّ أمامَهُما.

قالَ أصوتاي لِلْفَتاتَيْن:

ـ «لَيْتَنا نَسْتَطيعُ أَخْذَ هٰذِهِ الزَّهْرَةِ مَعَنا، لَعَلَّنا نَتَمَكَّنُ بِفَضْلِها مِنْ أَنْ نَحْصُلَ على كُلِّ ما نَتَمَنَّاهُ في حَياتِنا».

تَوَقَّفَتْ ساردونيا بُرْهَةً وقالَتْ:

ـ «لَدَيَّ سُؤالٌ. يُمْكِنُنا أَنْ نَكْتُبَ أَشْياءَ جَمِيلةً. هٰذا رائِعٌ وَجَميلٌ، ولٰكِنْ مِنَ المُمْكِنِ كِتابَةُ أَشْياءَ سَيِّئَةٍ أَيْضًا، فَما الَّذي سَيَحْدُثُ حينَئِذٍ؟».

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَمامًا، عَمَّ ضَجيجُ المَكانَ، فَسَقَطَتْ أَرْبَعُ أَوْراقٍ أُخرى مِنَ الشَّجَرَةِ في أَثْناءِ تَبادُلِهِمُ الحَديثَ. والأَحْرُفُ الَّتي تَحْمِلُها هٰذِهِ الأَوْراقُ كانَتِ «السِّينَ» و«الأَلِفَ» و«الحاءَ» و«الرَّاءَ».

طَبْعًا، كَما حَدَثَ سابِقًا، ظَهَرَتْ ساحِرَةٌ مِنَ الأَحْرُفِ المُتَساقِطَةِ. كانتْ تَلْبَسُ السَّوادَ مِنْ رَأْسِها حَتّى أَخْمَص قَدَمَيْها. أَمَّا شَعَرُها، فكانَ وَسِخًا ودُهْنِيًّا وطَويلًا، حتَّى إِنَّه كانَ يَلْمُسُ الأَرْضَ.

قالَتِ السَّاحِرَةُ:

ـ «ماذا أَرى هُنا؟ أَأَرى ضُيوفًا مُتَطَفِّلينَ...»؟

قالَتْ زَهْراءُ:

ـ «كُنّا عَلى وَشَكِ الرَّحيلِ...».

عَقَدَتِ السَّاحِرَةُ حاجِبَيْها:

ـ «لا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَخْطُوا خُطْوَةً واحِدَةً. لَنْ أَسْمَحَ لَكُم بِذٰلِكَ. هَيَّا عُودوا بِسُرْعَةٍ».

ـ «ولِماذا؟».

ـ «لِأَنَّكُمْ أَطْفالٌ وَأَنا ساحِرَةٌ، وهٰذا يَعْني أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ الإِساءَةُ إِلَيْكُمْ».

ـ «يَعْنِي أَنَّكِ في الأَصْلِ لا تُريدينَ القِيامَ بِذٰلِكَ بِنَفْسِكِ، بَلْ لِأَنَّه يَتَوَجَّبُ عَلَيْكَ فِعْلُهُ، لا غَيْرُ. هَلْ هٰذا ما قَصَدْتِهِ؟!».

اِخْتَلَطَ عَقْلُ السَّاحِرَةِ. وَبَعْدَ أَنْ فَكَّرتْ قَليلًا، هَزَّتْ رَأْسَها، وقالَتْ:

ـ «نَعَمْ».

ـ «هٰذا هُراءٌ. حَتَّى وَلَوْ كُنْتِ ساحِرَةً يُمْكِنُكِ أَنْ تَتَغَيَّري. فَإِنْ كُنْتِ تَرْغَبينَ في الأَمْرِ يُمْكِنْكِ أَنْ تكوني امْرَأَةً لَطيفَةً».

ـ «إِمْرَأَةٌ لَطيفَةٌ؟ أَنا أَكُونُ امْرَأَةً لَطِيفَةً؟ إِذا أَصْبَحْتُ امْرَأَةً لَطِيفَةً أَكُونُ قَدْ تَخَلَّيْتُ عَنْ شَخْصِيَّتِي، فالسَّاحِراتُ سَيِّئاتٌ».

ـ «لِأَنَّ السَّاحراتِ الأُخْرَياتِ سَيِّئاتٌ، فَهٰذا لا يَعْني أَنْ تَكوني أَنْتِ أَيْضًا سَيِّئَةً مِثْلَهُنَّ. أَنْتِ شَخْصٌ مُخْتَلِفٌ، وَتَمْلُكِينَ عَقْلًا وَتَفْكيرًا مُخْتَلِفَيْنِ».

نَظَرَتِ السَّاحِرَةُ نَظَراتِ الدَّهْشَةِ والاسْتِغْرابِ، فَلَمْ تَسْمَعْ في حَياتِها كَلِماتٍ كَهٰذِهِ:

ـ «في الحَقِيقَةِ، أنا لا أُريدُ الإساءَةَ إلى أَحَدٍ. إذا قُمْتُ بِذٰلِكَ يَكْرَهُني الأَوْلادُ جَميعًا، لٰكِنَّني أُريدُ أَنْ أَكُونَ مَحْبوبَةً... عَمَلُ الساحِرَةِ صَعْبٌ جِدًّا».

ـ «إِذَنْ، اتْرُكي الأَعْمالَ السَّيِّئَةَ».

ـ «هممممم... لَكِنْ يُمْكِنُني القِيامُ بِتَصَرُّفٍ صَغيرٍ سَيِّئٍ. لَنْ أَسْمَحَ لَكُمْ بالذَّهابِ مِنْ غابَةِ الخِياراتِ. سَأُصَعِّبُ عَلَيْكُمُ الأَمْرَ. سَيَكونُ أمامَكُمْ أَرْبَعَةُ طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَلَيْسَ طَريقًا واحِدًا فَقَط».

صَرَخَتْ زَهْراءُ:

ـ «أَرْبَعَةُ طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ؟»، ثُمَّ نَظَرَتْ إلى السِّوارِ، فَفي كُلِّ حالٍ، لَنْ يَسْتَطيعوا التَّقَدُّمَ مِنْ دُونِ الخَريطَةِ».

ـ «نَعَمْ... أَرْبَعَةُ طُرُقٍ: هِيَ التُّرابُ والماءُ والنّارُ والهَواءُ. والآنَ، أَخْبِروني: أَيَّ طَريقٍ تَخْتارونَ؟».

صاحَتْ ساردونيا:

ـ «لٰكِنَّ هٰذا ظُلْمٌ. عَلَيْكِ أَنْ تُعْطِينا رَأْسَ الخَيْطِ».

ضَحِكَتِ السَّاحِرَةُ:

ـ «لَيْسَ هُناكَ رَأْسُ خَيْطٍ لِكُلِّ شَيْءٍ في هٰذِهِ الحَياةِ. وبِما

أَنَّكِ طَلَبْتِ ذٰلِكَ، سَأُعْطِيكِ رَأْسَ الخَيْطِ: أَحَدُ هٰذِهِ الطُّرُقِ صَحِيحٌ، والطُّرُقُ الأُخرى خاطِئَةٌ. فإِنْ سِرْتُمْ في الطَّريقِ الصَّحِيحِ تَصِلوا بِأَقْصى سُرْعَةٍ، وإِنْ ذَهَبْتُم في الطَّريقِ الخاطِئِ تُعانُوا كَثِيرًا، وَلَنْ تَصِلوا إلى هَدَفِكُمْ».

بَدَأَ أصوتاي وساردونيا وزَهْراءُ يَتَناقَشُون وَيَتَجادلون. كانَتْ ساردونيا تُريدُ طَريقَ النَّارِ، وزَهْراءُ تُفَضِّلُ طَريقَ التُّرابِ. أمَّا أصوتاي، فَاخْتارَ طَريقَ الماءِ. لَمْ يَسْتَطيعوا الاتِّفاقَ عَلى قَرارٍ مُوَحَّدٍ. حَتَّى كادَ الأَصْدِقاءُ الثَّلاثَةُ يَتْرُكُون بَعْضَهُمُ البَعْضَ.

وأَخيرًا، صَحَّحَتْ ساردونيا المَوْقِفَ قائِلَةً:

ـ «لِنَتَوَقَّفْ عَنِ الجِدالِ الآنَ. لَنْ يَنْفَعَنا النِّقاشُ في شَيْءٍ. أنا تَخَلَّيْتُ عَنْ رَأْيِي، وسَنَقومُ بِقُرْعَةٍ بَيْنَ الماءِ والتُّرابِ».

وافَقَ الجَميعُ عَلى هٰذا الرَّأْيِ، فَأَخْرَجَتْ ساردونيا قِطْعَةً نَقْدِيَّةً من جَيْبِها لِتَسْتَخْدِمَها في القُرْعَةِ، وَرَمَتْها إلى الأَعْلى.

كانَ رَأْيُ زَهْراءَ هُوَ الَّذي فازَ في القُرْعَةِ. غَضِبَ أصوتاي، لكنْ لَيْسَ هُناكَ ما يُمْكِنُهُ فِعْلَهُ، فَلَقَدِ اتَّفَقوا عَلى هٰذا. تَوَجَّهوا نَحْوَ هٰذا الطَّريقِ، وساروا فيهِ.

وَقَعَ شَكٌّ في صَدْرِ ساردونيا: هَلِ اسْتَعْجَلوا في اتِّخاذِ

القَرارِ. رُبَّما كان يَنْبَغي لَهُمُ التَّفْكِيرُ أَكْثَرَ. ماذا لَوْ كانَ الطَّريقُ الَّذي اخْتارُوه خاطِئًا؟ نَظَرَتْ إلى صَديقَيْها. كانَتْ حواجِبُهما أَيْضًا مَعْقودَةً، وعُقولُهُمْ كانَتْ مُشَوَّشَةً.

لٰكِنَّهُمُ اقْتَرَعوا في هٰذا الأَمْرِ، واتَّفَقوا... تَقَدَّمَ الأَصْدِقاءُ الثَّلاثَةُ في طَريقِ التُّرابِ خائِفِينَ.

ماذا كانَ في انْتِظارِهِمْ، يا تُرى؟؟؟

التُّرابُ

كانَ طَريقُ التُّرابِ يَمْتَدُّ مُلْتَوِيًا مِثْلَ الأَفْعى، وكانَتْ زَهْراءُ تَتَقَدَّمُهُما مُمْسِكَةً لِجامَيِ الحِصانَيْنِ، وأصوتاي وساردونيا يَسيرانِ خَلْفَها.

مَرُّوا في حَقْلٍ مَليءٍ بِأَزْهارِ البابُونِجِ. كانَ مَنْظَرُها رائِعًا. صَفَّقَتْ ساردونيا مُبْتَهِجَةً. وفكَّرَتْ في أنَّ الإِنْسانَ يَشْعُرُ بالسَّعادَةِ والسُّرورِ لَوْ سارَ في الطَّبيعَةِ، وَلَنْ يُحِسَّ بأيِّ مَلَلٍ أَوْ كَلَلٍ. لَقَدْ نَسِيَ النَّاسُ رائِحَةَ التُّرابِ في حَياةِ المدينَةِ.

لَمْ يُلَوِّثْ أَحَدٌ الطَّبيعَةَ في القارَّةِ الثَّامِنَةِ، وَلَيْسَ هُناكَ أَيُّ عُلَبٍ فارِغَةٍ مَرْمِيَّةٍ على الأَرْضِ، ولا قاروراتٌ أَوْ أَيُّ قُمامَةٍ.

أُعْجِبَتْ ساردونيا بِهٰذا الأَمْرِ:

ـ «ما أَنْظَفَ هٰذا المَكانَ».

أَجابَها أصوتاي:

ـ «هُنا بَيْتُنا جَميعًا، وَلَيْسَ لَدَيْنا مَكانٌ آخَرُ نَأْوِي إِلَيْهِ. والجَميعُ هُنا يُحِبُّ الطَّبيعَةَ».

ـ «هل تُلاحِظُ، يا أصوتاي، أَنَّكَ لم تَعُدْ تَتَلَعْثَمُ في الكَلامِ».

ابْتَسَمَ أصوتاي:

ـ «يَقِلُّ تَلَعْثُمي في الكَلام أَمامَ الناسِ الَّذين أُحِبُّهم، وَيَزْدادُ عِنْدَما أَشْعُرُ بالقَلَقِ، أَوْ أَتَعَرَّف إلى أَشْخاصٍ جُدُدٍ».

سَأَلَتْهُ ساردونيا:

ـ «ولِماذا تَشْعُرُ بالقَلَقِ؟».

ـ «لا أُريدُ أَنْ يَضْحَكَ الآخَرونَ مِنِّي».

حَنَتْ ساردونيا رَأْسَها لِأَنَّها أَحَسَّتْ بِالأَمْرِ نَفْسِهِ، لِأَنَّه مِثْلُها:

ـ «لَيْسَ مُهِمًّا ما يُفَكِّرُ فيهِ الآخَرونَ تِجاهَكَ. يُمْكِنُ أَنْ يَضْحَكَ النَّاسُ مِنْكَ، وَلٰكِنَّ هٰذا يَعْني أَنَّ المُشْكِلَةَ فِيهِمْ، وَلَيْسَتْ فيكَ. عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ قَوِيًّا وهادِئًا، حينَها لَنْ يُزْعِجَكَ

أَوْ يُؤْذِيَك أَيُّ كَلام».

بِمُجَرَّدِ قَوْلِها هٰذا الكَلامَ تَوَقَّفَتْ ساردونيا، فَلَمْ تَتَحَدَّثْ مَعَ أَيِّ أَحَدٍ بِهٰذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنْ قَبْلُ. وَكَأَنَّ هٰذا الكَلامَ لَمْ يَكُنْ مُوَجَّهًا إلى أصوتاي فَحَسْبُ، بَلْ كانَتْ تُخاطِبُ بِهِ نَفْسَها أَيْضًا. وَبَيْنَما كانَتْ تَنْصَحُهُ، كانَتْ تُوَجِّهُ النُّصْحَ إلى نَفْسِها في الحَقيقَةِ.

أَجابَها أصوتاي:

ـ «إذا فَعَلْتُ ما قُلْتِهِ لِي فَلَنْ يُحِبَّني أَحَدٌ، وَسَأَبْقى وَحيدًا».

ـ «لِماذا لَنْ يُحِبَّكَ أَحَدٌ. لَيْسَ المُهِمُّ أَنْ يُحِبَّك الجَميعُ، المُهِمُّ أَنْ تُحِبَّ أَنْتَ نَفْسَكَ أَوَّلًا. فإذا كُنْتَ مُتَصالِحًا مَعَ ذاتِكَ فَسَيَكْثُرُ الأَصْدِقاءُ حَوْلَكَ».

في تِلْكَ الأَثْناءِ، جاءَتْ زَهْراءُ تَجْري:

ـ «هُناكَ... في هٰذِهِ الجِهَةِ... جِسْرٌ عَجيبٌ».

سارَ الأَصْدِقاءُ بِكُلِّ حَذَرٍ. هُناكَ في الأَمامِ كَأَنَّ الأَرْضَ قُسِمَتْ بالسِّكِّينِ قِسْمَيْنِ. وفي الوَسَطِ وادٍ ضَيِّقٌ عَميقٌ. وهُناكَ جِسْرٌ يَمْتَدُّ مِنْ بَيْنِ الجِهَتَيْنِ؛ جِسْرٌ مُعَلَّقٌ ضَيِّقٌ وَطَويلٌ. لَمْ يُصْنَعْ مِنَ الحِجارَةِ أوِ الخَشَبِ، بَلْ صُنِعَ مِنَ الزُّجاجِ. كانَ

يَبْدُو مُخيفًا، وَعَلى مَدْخَلِ هٰذا الجِسْرِ جِنِّيَّةٌ عابِسَةُ الوَجْهِ. نَظَرَتْ زَهْرَةُ الساردونيا في دَهْشَةٍ، فالجِنِّيّاتُ في كُلِّ الحِكاياتِ الَّتي قَرَأَتْها كانَتْ لَطيفَةً وَجَميلَةً، لٰكِنَّ هٰذِهِ الجِنِّيَّةَ لا تُشْبِهُ ما قَرَأَتْه في الكُتُبِ والحِكاياتِ.

عِنْدَما رَأَتْهُمُ الجِنِّيَّةُ يَتَوجَّهونَ نَحْوَ الجِسْرِ، قالَتْ لَهُمْ:

ـ «تَوَقَّفوا! لا يُمْكِنُكُمُ العُبورُ مِن هٰذا الجِسْرِ. مَمْنوعٌ!!».

ـ «ولِماذا مَمْنوعٌ؟».

ـ «قُلْتُ مَمْنوعٌ فَحَسْبُ».

كانَتْ زَهْرَةُ الساردونيا تَعْرِفُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْها أَلَّا تُجادِلَ أَشْخاصًا سَيِّئي الطَّبْعِ. سَأَلَتْها سُؤالًا آخَرَ بِذَكاءٍ:

ـ «حَسَنًا... أَلَمْ يَعْبُرْ أَحَدٌ مِنْ هُنا حتَّى الآنَ؟».

ـ «كانَ هُناكَ مَنْ عَبَروا، لٰكِنَّهم أَجابوا عَنْ أَسْئِلَتي».

رَدَّتْ عَلَيْها زَهْراءُ مُتَأَمِّلَةً:

ـ «وما يُدْريكِ، فَرُبَّما نَحْنُ أَيْضًا نَسْتَطيعُ أَنْ نُجيبَ عَنِ الأَسْئِلَةِ».

ـ «لا أَظُنُّ ذٰلِكَ، لَكِنْ لِنُجَرِّبْ، في كُلِّ حالٍ، إِلَّا أَنّي

أُحَذِّرُكُمْ: إِنَّ أَسْئِلَتي صَعْبَةٌ جِدًّا».

شَعَرَتْ ساردونيا بِالقَلَقِ قَليلًا، فَإِنْ كانَتِ الأَسْئِلَةُ في الجُغرافيا فَلا بَأْسَ في ذٰلِكَ، فَمَعْلوماتُها في الجُغرافيا جَيِّدَةٌ جِدًّا. لٰكِنْ، ماذا سَتَفْعَلُ لَوْ كانَتِ الأَسْئِلَةُ في الحِسابِ؟ وَبَيْنَما كانَتْ تُفَكِّرُ في هٰذا الأَمْرِ، وَجَّهَتِ الجِنِّيَّةُ ناظِرَيْها إِلَيْها، وَقالَتْ:

ـ «سَأَسْأَلُ في الحِسابِ!».

هٰذا مُسْتَحيلٌ... كَأَنَّ الجِنِّيَّةَ كانَتْ تَقْرَأُ أَفْكارَها. لَعَلَّهُ كانَ مِنَ الأَفْضَلِ أَلَّا تُفَكِّرَ أَبَدًا. فاتَ الأَوانُ للتَّراجُعِ عَنْ هٰذا. ها هو سُؤالُ الحِسابِ آتٍ...

«آهٍ»، قالَتْ ساردونيا، وأضافَتْ: «أنا لا يُمْكِنُني الإجابَةُ».

ـ «لَمْ تُجَرِّبي بَعْدُ. كَيْفَ عَرَفْتِ أَنَّك لَنْ تَسْتَطيعي الإِجابَةَ؟!».

ـ «أنا ضَعيفَةٌ في الحِسابِ. في الحَقيقَةِ...».

ـ «في الحَقيقَةِ ماذا؟».

ـ «أَنا أَسْوَأُ طالِبَةٍ في الصَّفِّ».

لَمْ تُبالِ ساردونيا إنْ كانَتِ الجِنِّيَّةُ سَتَسْخَرُ مِنْها. الأَجْدَرُ بِها أَنْ تَقولَ الحَقيقَةَ.

لم تَضْحَكِ الجِنِّيَّةُ مِنْها وَلَمْ تَسْخَرْ مِنْها، بَلْ سَأَلَتْها:

ـ «أَلِأَنَّكِ سَيِّئَةٌ في الحِسابِ تَخافِينَ مِنْ هٰذِهِ المادَّةِ؟ أَمْ أَنَّكِ سَيِّئَةٌ في هٰذِهِ المادَّةِ لِأَنَّكِ تَخافِينَ مِنَ الحِسابِ؟».

ـ «أَظُنُّ أَنَّ كِلَيْهِما مَعًا».

قَرَّرَتْ ساردونيا أَنْ تَكْتُبَ هٰذا في دَفْتَرِها في أَقْرَبِ فُرْصَةٍ.

ـ «اسْمَعي إِذَنْ. سُؤالي هُوَ: كَمْ زاوِيَةً للنَّجْمَةِ؟».

شَعَرَتْ ساردونيا بِتَوَتُّر شَديدٍ حَتَّى إِنَّها لم تَسْتَطِعِ الإجابَةَ عَنْ هٰذا السُّؤالِ.

اسْتَهْزَأَتِ الجِنِّيَّةُ مِنْهُمْ ضاحِكَةً:

ـ «ها... ها... ها... لَمْ تَعْرِفوا الجَوابَ. سَأَمْنَحُكُمْ فُرْصَةً أُخرى. مَوْضوعُنا الآنَ عِلْمُ الأَحْياءِ».

نَظَرَتْ ساردونيا بِحَماسَةٍ، لَكِنَّ الجِنِّيَّةَ لَمْ تُوَجِّهِ السُّؤالَ إِلَيْها في هٰذِهِ المَرَّةِ، وإِنَّما تَوَجَّهَتْ إلى أَصوتاي، لِأَنَّهُ يَخافُ مِنْ هٰذا المَوْضوعِ كَثيرًا.

أشارَتِ الجِنِّيَّةُ إِلَيْهِ قائِلَةً:

ـ «أَنْتَ... سُؤالِي لَكَ أَنْتَ. سَأَسْأَلُكَ عَنْ بِلادِ أفهِما».

تَلَعْثَمَ أصوتاي مُجيبًا:

ـ «أ... أ... أنااااا».

هَمَسَتْ ساردونيا في أُذُنِ أصوتاي:

ـ «لا تَقْلَقْ، يُمْكِنُكَ القِيامُ بِذٰلِكَ».

ـ «ما هُوَ المَعْدِنُ الأَكْثَرُ إِنْتاجًا في أَراضي بِلادِ أفهِما؟ وأَيْنَ يُسْتَخْدَمُ؟».

ثُمَّ أَضافَتْ إلى سُؤالِها:

ـ «سَأُعطيكَ رَأْسَ الخَيْطِ: يَنشُرُ أَذْيالَ المَخْلوقاتِ، لٰكِنَّهُ لا يُسَبِّبُ الأَلَمَ لأَرْواحِهِمْ».

ارْتَبَكَ أصوتاي كَثيرًا إلى دَرَجةِ أَنَّه بَدَأَ بالبُكاءِ. حتَّى إنَّه لَمْ يَسْتَمِعْ إلى رَأْسِ الخَيْطِ.

ـ «لا... لاااا... لا أَعْرِفُ».

ارْتَفَعَتْ قَهْقَهاتُ الجِنِّيَّةِ:

ـ «سُؤالٌ بَسيطٌ جِدًّا... إِنَّهُ الحَجَرُ الشّائِكُ».

هُنا طَلَبَتْ ساردونيا فُرْصَةً أخيرَةً:

ـ «نُريدُ فُرْصَةً أَخيرَةً».

ـ «حَسَنًا، ولْيَكُنْ في عِلْمِكُمْ: إنْ لَمْ تَسْتَطيعوا الإجابَةَ عَنْ هٰذا السُّؤالِ فَسَتَخْسَرونَ، وسَتَعُودونَ أَدْراجَكُمْ».

وَضَعَتْ ساردونيا يَدَيْها عَلى كَتِفَيْ صَديقَيْها وهَمَسَتْ:

ـ «لَقَدْ أَدْرَكْتُ ما تُفَكِّرُ فيه هٰذِهِ الجِنِّيَّةُ. إِنَّها تَقْرَأُ مَخاوِفَنا، وكُلَّما ازْدادَتْ ثِقَتُنا بِأَنْفُسِنا كانَتِ الأَسْئِلَةُ سَهْلَةً، لأَنَّنا عِنْدَما نَشْعُرُ بالقَلَقِ تَزْدادُ الأَسْئِلَةُ صُعوبَةً».

أَجابَتْ زَهْراءُ:

ـ «الآنَ فَهِمْتُ».

نادَوا الجِنِّيَّةَ وعَلاماتُ العَزْمِ والإصْرارِ ظاهِرَةٌ عَلى وُجوهِ الأَصْدِقاءِ الثَّلاثَةِ:

ـ «نَحْنُ جاهِزونَ».

لَمْ يَكُنْ أَيُّ شَخْصٍ مِنْهُمْ يَرْجُفُ.

ـ «شَيْءٌ سَريعُ الكَسْرِ، لَيْسَ مِنَ الرُّخامِ ولا مِنَ الزُّجاجِ، وعَلى الرَّغْمِ من كَسْرِه فإِنَّ النّاظِرَ إِلَيْهِ لا يُلاحِظُ أَنَّهُ مَكْسُورٌ؟ هَيّا، ابحَثي عَنِ الجَوابِ. ما هُوَ؟».

أجابَتْ ساردونيا:

ـ «بَسِيطٌ جِدًّا.

ـ «هَيّا، أَعْطوني الجَوابَ. فَفي كُلِّ حالٍ، لَنْ تَعْرِفوا الإجابَةَ الصَّحِيحَةَ».

تبادَلَ الأَوْلادُ النَّظراتِ وَهُمْ يَبْتَسِمونَ. كانَ الثَّلاثَةُ يَعْرِفُونَ الإجابَةَ، فَأَجابُوا بصَوْتٍ واحِدٍ:

ـ «القَلْبُ».

اسْتاءَتِ الجِنِّيَّةُ وقالَتْ عَلى غَيْرِ رِضًى:

ـ «هَيَّا، يُمْكِنُكُمُ الآنَ عُبُورُ الجِسْرِ».

تَغَيَّرَ سَيْرُهُمْ عِنْدَما خَرَجوا مِنَ الغابَةِ.

في أَثْناءِ عُبْورِهِمُ الجِسْرَ، قالَ أصوتاي:

ـ «هٰذا يَعْني أَنَّنا حِينَما نَتَغاضى عَنِ القَلَقِ والتَّوَتُّرِ نَكونُ أَكْثَرَ نَجاحًا».

«نَعَمْ» قالَتْ زَهْرَةُ الساردونيا، ثُمَّ أَخْرَجَتْ دَفْتَرَها وَكَتَبَتْ هٰذِهِ الجُمْلَةَ أَيْضًا، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ:

ـ «جاءَتْني فِكْرَةٌ: يَقِلُّ تَلَعْثُمُكَ عِنْدَ وُجودِكَ مَعَ الأَشْخاصِ الَّذينَ تُحِبُّهُمْ. أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟»

ـ «نَعَمْ؟».

ـ «إِذَنْ، كُنْ في رِفْقَةِ الشَّخْصِ الَّذي تُحِبُّهُ دائِمًا».

ـ «لٰكِنْ، كَيْفَ؟ لا يُمْكِنُني أَنْ أَجِدَ صَديقًا في كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ».

ـ «يُمْكِنُكَ أن تَجِدَ صَديقًا لا يُفارِقُك أَبَدًا».

سَأَلَ مُتَعَجِّبًا: «ومَنْ هُوَ؟».

ـ «أَنْتَ نَفْسُكَ طَبْعًا. هُناكَ شَخْصٌ في داخِلِك يَفْهَمُكَ دائِمًا».

بَعْدَ السَّيْرِ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ، وَصَلوا إلى حَقْلٍ مَلِيءٍ بِأَزْهارِ البابُونِجِ الصَّفْراءِ. نَظَرَتْ ساردونيا مُتَسائِلَةً:

ـ «كَأَنَّني أَعْرِفُ هٰذا المَكانَ!».

أَجابَتْ زَهْراءُ:

ـ «يا إِلٰهي، لَقَدْ عُدْنا إلى البِدايَةِ».

نَعَمْ، كانَ طَريقُ التُّرابِ مِثْلَ الأَفْعى المُلْتَوِيَةِ، إِلَّا أَنَّها كانَتْ قَدِ ابْتَلَعَتْ ذَيْلَها. لَقَدْ عادُوا إلى نُقْطَةِ البِدايَةِ بَعْدَ أَنْ سَلَكوا طَريقًا دائِريًّا. نظَروا وإِذْ بالسَّاحِرَةِ تَنْتَظِرُهُمْ وَهِيَ تَضحَكُ.

غَضِبَتْ زَهْراءُ:

ـ «لِماذا لَمْ تَقُولِي لَنا إِنَّنا سَنَعُودُ إلى نُقْطَةِ البِدايَةِ إنْ سَلَكْنا طَريقَ التُّرابِ؟ انْظُري. لَقَدْ عُدْنا مِنَ المَكانِ الَّذي انْطَلَقْنا مِنْهُ».

أَجابَتِ السَّاحِرَةُ:

ـ «لا، لَيْسَ هُوَ المَكانَ نَفْسَهُ. لَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَشْياءَ جَدِيدَةً. لَقَدْ تَغَيَّرْتُمْ قَليلًا. فَأَنْتُمُ الآنَ أُناسٌ مُخْتَلِفونَ».

كانَ الأَصْدِقاءُ غاضِبِينَ إلى دَرَجَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعوا إلى ما قالَتْهُ السَّاحِرَةُ.

غَضِبَ أصوتاي، وقالَ:

ـ «لَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ أَنْ نَخْتارَ طَريقَ الماءِ».

قالَتْ ساردونيا:

ـ «لِنَعُدْ مِنْ جَديدٍ، إِذَنْ. لَعَلَّ الطَّرِيقَ الصَّحيحَ هُوَ طَريقُ الماءِ».

... وعادوا مِنْ جَديدٍ في رِحْلَةٍ جَدِيدَةٍ.

الماءُ

كانَ الأَصْدِقاءُ الثَّلاثَةُ يَشْعُرونَ بالتَّعَبِ والجُوعِ. تَوَقَّفوا عَلى ضَفَّةِ النَّهْرِ لِيَأْخُذوا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ. كانَ الماءُ رَقْراقًا، فَشَرِبوا حَتَّى ارْتَوَوْا، ثُمَّ رَفَعوا رُؤُوسَهُمْ ونَظَروا إلى المِياهِ المُتَدَفِّقَةِ. في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، مَرَّ أمامَهُمْ سَرْبُ سَمَكٍ. كانَتْ مِئاتُ الأَسْماكِ تَسْبَحُ في ذُعْرٍ، وَكَأَنَّها فارَّةٌ مِنْ خَطَرٍ ما.

سَأَلَتْ ساردونيا:

ـ «ما الَّذي يَحْدُثُ هُنا؟».

بِمُجَرَّدِ سُؤالِها، قَفَزَتْ سَمَكَةُ سَلَمونٍ وَبَدَأَتْ بالكَلامِ. دُهِشَ الأَوْلادُ مِمّا رَأَوْا:

ـ «لِماذا تَعَجَّبْتُمْ؟ أَلَا تَتَكَلَّمُ الأَسْماكُ في عالَمِ الحِكاياتِ؟».

ـ «لَكِنَّها حِكايَةٌ».

ـ «لا تَسْتَهيني بِهٰذِهِ الكَلِمَةِ! فِي الحَقِيقَةِ، الأَسْماكُ تَتَكَلَّمُ دائِمًا، وهٰذا هُوَ سَبَبُ فَتْحِ أَفْواهِنا وإِغْلاقِها باسْتِمْرارٍ. نَحْنُ نَتَكَلَّمُ، ولٰكِنَّكُمْ لا تَسْمَعونَنا».

أَخرَجَتْ ساردونيا دَفْتَرَها وَكَتَبَتْ هٰذِهِ المُلاحَظَةَ: «أَحْيانًا، لا تَعْرِفُ ما الَّذي يَقُولُهُ الآخَرُ، لَيْسَ لِأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ، بَلْ لِأَنَّكَ لا تَسْمَعُهُ».

سَأَلَ أصوتاي السَّمَكَةَ:

ـ «لِماذا تَهْرُبُونَ؟».

ـ «الأَنْهارُ في جَفافٍ مُسْتَمِرٍّ، والمِياهُ تَكادُ تَنْتَهي. لَمْ تَعُدِ الأَنْهارُ، الَّتِي كُنّا نَسْبَحُ فيها بِحُرِّيَّةٍ، مَوْجُودَةً، لِذا نَنْتَقِلُ إِلى المِياهِ الرَّقْراقَةِ، لٰكِنَّها سَتَجِفُّ قَريبًا. حَياتُنا في خَطَرٍ...».

أَجابَتْ زَهْراءُ وَقَدْ مَلَأَ الحُزْنُ قَلْبَها:

ـ «لَقَدْ فَسُدَ تَوازُنُ بَلَدِنا. عَلَيْنا أَنْ نُوصِلَ الأَفْكارَ الَّتي جَمَعْناها إلى العاصِمَةِ في أَقْرَبِ وَقْتٍ».

ـ «لٰكِنْ، كَيْفَ سَنَعْبُرُ إِلى الضَّفَّةِ الأُخْرى؟».

اِلْتَفَتوا إلى النَّهْرِ، وحِينَها لاحَظوا مَدى كِبَرِهِ، عَرْضًا وعُمْقًا.

أَجابَتْ سَمَكَةُ السَّلَمونِ:

ـ «هُناكَ عِدَّةُ شُروطٍ لِتَسْتَطِيعُوا عُبُورَ النَّهْرِ. يَجِبُ عَلَيْكُمُ الإِجابَةُ عَنْ أَسْئِلَتِي أَوَّلًا. هَيّا، أَجِيبوني: لِماذا يَبْدو لَوْنُ الماءِ شَفَّافًا في الكَأْسِ، بَيْنَما يَبْدُو البَحْرُ أَزْرَقَ اللَّوْنِ؟».

عَلى الفَوْرِ، أَجابَتْ ساردونيا:

ـ «أَنا أَعْرِفُ. هٰذا بِسَبَبِ الأَشِعَّةِ الَّتي تَعْكِسُها الشَّمْسُ، إِذْ تَقُومُ جُزَيْئِيَّاتُ البَحْرِ بامْتِصاصِ اللَّوْنِ الأَحْمَرِ مِنَ الشَّمْسِ وَتَعْكِسُها بِاللَّونِ الأَزْرَقِ».

ـ «أَحْسَنْتِ. أَرى أَنَّكِ جَيِّدَةٌ في العُلوم. حَسَنًا... سَأَسْأَلُكُمْ سُؤالًا عَنْ عالَمِنا أَيْضًا: ما هُوَ أَهَمُّ وَأَطْوَلُ نَهْرٍ؟ وسَأُعْطيكُمْ رَأْسَ الخَيْطِ أَيْضًا: أَخَذَ اسْمَهُ مِنْ أَحَدِ الكائِناتِ، وَبَدَأَ يَجْرِي فِي الأَرْجاءِ».

قالَتْ زَهْرَةُ الساردونيا:

ـ «هٰذا السُّؤالُ سَهْلٌ جِدًّا». صَحِيحٌ أَنَّها لَمْ تَدْخُلْ بِلادَ أفهِما إِلَّا في الزَّمانِ القَرِيبِ، لٰكِنَّها كانَتْ تُؤْمِنُ بِقُوَّةِ نَظَرِها وَأَحاسِيسِها. وكانَ أَطْوَلَ نَهْرٍ هُوَ ذاكَ النَّهْرُ الَّذي كانوا يَقِفُون

أَمامَه. وَبِما أَنَّ أَسْماكَ السَّلَمون تَسْبَحُ فيه، خَطَرَ في بالِها أَنْ يَكُونَ اسْمُ هٰذا النَّهْرِ نَهْرَ السَّلَمُونِ. فَقالَتْ:

ـ «نَهْرُ السَّلَمُونِ».

تَعَجَّبَتِ السَّمَكَةُ:

ـ «نَعَمْ، أَحْسَنْتِ. لَقَدْ عَرَفْتِ الجَوابَ مُجَدَّدًا. حَسَنًا... كَيْفَ أَنْتِ في الرِّياضَةِ؟ هَلْ يُمْكِنُكِ سَبْقي في السِّباحَةِ؟».

طَأْطَأَتْ ساردونيا رَأْسَها قائِلَةً:

ـ «لَمْ أَكُنْ جَيِّدَةً فِي الرِّياضَةِ أَبَدًا. لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْبِقَكِ أَبَدًا».

ـ «لِيَكُنْ... فالسِّباقُ أَحْيانًا يَكُونُ مُمْتِعًا فَقَطْ لِأَنَّهُ سِباقٌ، وَلَيْسَ بِهَدَفِ الفَوْزِ. وحتَّى الفَوْزُ في السِّباقِ لَيْسَ مُمْتِعًا كالسِّباقِ ذاتِه. هَلْ أَنْتِ مُسْتَعِدَّةٌ؟».

تَرَدَّدَتْ ساردونيا. فَالإِنْسانُ يَرْغَبُ في الفَوْزِ إذا شارَكَ في سِباقٍ ما، فَكَيْفَ يَكُونُ السِّباقُ مُمْتِعًا إذا كانَتْ تَعْرِفُ مِنَ البِدايَةِ أَنَّها سَتَخْسَرُ؟!

ـ «لا، لَسْتُ مُسْتَعِدَّةً».

لٰكِنَّها نَدِمَتْ فَوْرَ تَلَفُّظِها بِهٰذِهِ الجُمْلَة، أَدْرَكَتْ أَنَّها أَخْطَأَتْ. لَعَلَّ المُهِمَّ في الأَمْرِ هُوَ السِّباقُ، وَلَيْسَ الفَوْزَ. والأَصْلُ في هٰذِهِ المُحاوَلَةِ هُوَ الجِدُّ، وَلَيْسَ كَسْبَ السِّباقِ.

قالَ أصوتاي في تَرَدُّدٍ:

ـ «يُمْكِنُنِي أَنا القِيامُ بِذٰلِكَ».

فَقَدْ كانَ الأَفْضَلَ في السِّباحَةِ. لِذٰلِكَ قَرَّرُوا أَنْ يُسابِقَ السَّمَكَةَ.

بَعْدَ قَلِيلٍ، قَفَزَ أصوتاي في النَّهْرِ وتَعابيرُ القَلَقِ ظاهِرَةٌ عَلى وَجهِه، تَقَدَّمَ منافِسَته لِمُدَّةٍ، لٰكِنَّ السَّمَكَةَ تَقَدَّمَتْه لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، وَبِذٰلِكَ فازَتْ في السِّباقِ بفارِقٍ صَغِيرٍ.

خَرَجَ أصوتاي إلى الضَّفَّةِ عابِسَ الوَجْهِ، وشَعَرُهُ المُجَعَّدُ والمَنْفُوشُ قَدْ لصِقَ بِرَأْسِهِ. تَتَساقَطُ قَطَراتُ الماءِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِن جَسَدِه. تَنَهَّدَ في حُزْنٍ:

ـ «إنَّ طَريقَ الماء هٰذا صَعْبٌ جِدًّا. ما كانَ يَجِبُ عَلَيْنا اخْتِيارُهُ. سنُعاني كثيرًا في هٰذا الطَّريقِ».

أَجابَتْ زَهْراءُ:

ـ «نَعَمْ... أُشارِكُكَ في الرَّأْيِ. فإذا كانَتْ بِدايَةُ الطَّرِيقِ بِهٰذِهِ الصُّعُوبَةِ، فمَنْ يَدْري كَيْفَ سَتَكُونُ النِّهايَةُ. هَيّا، لِنَتَراجَعْ

عَنْ رَأْيِنا، وَلْنَعُدْ أَدْراجَنا».

اِقْتَرَبَتْ سَمَكَةُ السَّلَمونِ مِنْهُمْ، وَقالَتْ:

ـ «لا تَسْتَسْلِموا. أَنْتُم تُخطِئُونَ في هٰذا القَرارِ. أَنْصَحُكُمْ بِأَنْ تَسْتَمِرُّوا في طَرِيقِكُمْ. فإِذا اسْتَسْلَمْتُم في أَوَّلِ خسارَةٍ فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا التَّقَدُّمَ أَبَدًا. عَلى الإِنْسانِ أَلَّا يَغْتَمَّ فَوْرًا، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ الاجْتِهادُ أَكْثَرَ».

لَمْ يَسْتَمِعِ الأَوْلادُ إِلَيْها، فَصُعُوبَةُ المِياهِ قَدْ أَفْزَعَتْهُمْ.

تَوَجَّهَتْ ساردونيا إلى صَدِيقَيْها:

ـ «لَعَلَّ الطَّرِيقَ المُخْتَصَرَ هُوَ طَريقُ النَّارِ. لَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ هٰذا مِنْ قَبْلُ. أنا مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أَنَّ ذاكَ الطَّريقَ أَسْهَلُ».

عادُوا إلى غابَةِ الخِياراتِ، واخْتاروا طَريقَ النَّارِ في هٰذِهِ المَرَّةِ.

لَعَلَّه الطَّريقُ الأَصَحُّ... ماذا لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ؟؟؟

النارُ

ها هُمُ الأَصْدِقاءُ الثَّلاثَةُ قَدْ وَصَلوا إلى طَريقِ النَّارِ. وبِمُجَرَّدِ دُخولِهِمُ هٰذا الطَّريقَ بَدَأَتْ دَرَجَةُ الحَرارَةِ تَرْتَفِعُ بِسُرْعَةٍ هائِلَةٍ.

قالَتْ ساردونيا:

ـ «يا إلٰهي، لَقَدْ تَعَرَّقْتُ كَثيرًا».

وَرَدَّ أصوتاي:

ـ «ما أَشَدَّ حَرَّ هٰذا المَكانِ!».

خَلَعوا مَعاطِفَهُمْ. وكُلَّما سارُوا شَعَرُوا بِالاخْتِناقِ أَكْثَرَ. بَعْدَ السَّيْرِ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ، رَأَوْا حَشَراتِ اليَراعَةِ، فَاقْتَرَبَتْ يَرَاعَةٌ إِلَيْهِمْ.

سَأَلَتْها زَهْراءُ:

ـ «لِماذا لا تُضيئِينَ؟».

ـ «في الحَقيقَةِ، نَحْنُ نُضِيءُ، لٰكِنَّكُمْ لا تَرَوْنَ ذٰلِكَ. انْتَظِروا اللَّيْلَ، فَإِنَّما يَبْدُو جَمالُنا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ».

قالَتْ لَها ساردونيا:

ـ «لٰكِنَّكِ تَبْدِينَ جَمِيلَةً هٰكَذا أَيْضًا».

ـ «شُكْرًا لَكِ أَيَّتُها العِمْلاقَةُ. أَنْتِ لَطِيفَةٌ جِدًّا».

ـ «عُمْلاقَةٌ؟ أَنا لَسْتُ عِمْلاقَةً».

ـ «بالنِّسْبَةِ إِلَيْكِ هٰكَذا، لٰكِنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْكُمْ عُمْلاقٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيَّ».

تَعَجَّبَتْ ساردونيا كَثيرًا، لِأَنَّها لَمْ تَشْعُرْ بِأَنَّها عُمْلاقَةٌ أَوْ ضَخْمَةٌ حَتَّى الآنَ. أَضافَتْ هٰذِهِ المُلاحَظَةَ أَيْضًا إلى دَفْتَرِها: «كُلُّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ بِحَسْبِ النَّاظِرِ. فَمَن يُرى عِمْلاقًا في نَظَرِ شَخْصٍ ما قَدْ يُرى قَزَمًا في نَظَرِ شَخْصٍ آخَرَ».

سَلَكوا طَريقَهُمْ. وكُلَّما ساروا إلى أَعْماقِ بِلادِ أفهِما، بِلادِ الأَساطيرِ والحِكاياتِ والقِصَصِ، لاحَظوا أَنَّ الأَنْهار قَدْ جَفَّتْ، والأَراضي صارَتْ قاحِلَةً مِنَ الجَفافِ. كَما كانَتْ

هُناكَ بَعْضُ الحُفَرِ العَمِيقَةِ والمُظْلِمَةِ. ما أَسْوَأَ مُشاهَدَةَ التَّغَيُّراتِ الَّتي أَصابَتِ الطَّبِيعَةَ!

قالَتْ زَهْراءُ الَّتي شاهَدَتْ هٰذِهِ المَناظِرَ باكِيَةً:

ـ «إِنَّنا نَجِفُّ... سَيَخْتَفِي بَلَدُنا».

تَأَثَّرَتْ ساردونيا كَثيرًا وحَزِنَتْ لِما رَأَتْه:

ـ «لا أَحَدَ يَعْرِفُ هٰذا. عِنْدَما أَعُودُ إلى المَدْرَسَةِ سَأُخْبِرُ الجَمِيعَ بِكُلِّ ما رَأَيْتُهُ، وَسَأُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ القارَّةَ الثَّامِنَةَ في جَفافٍ مُسْتَمِرٍّ».

أَجابها أصوتاي قَلِقًا:

ـ «ماذا لَوْ لَمْ يُصَدِّقوكِ؟».

ـ «لِيَكُنْ. إذا صَدَّقَني عِدَّةُ أَشْخاصٍ فَقَطْ يَكْفينا. رُبَّما يُشارِكُنا الباقونَ فيما بَعْدُ».

كادوا يَخْتَنِقُونَ مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ. وعَلى بُعدِ خُطُواتٍ، كانَتْ تُوجَدُ عَرَبَةٌ مَعْروضَةٌ، عَلَيْها إِبْرِيقٌ مِنْ عَصِيرِ اللَّيْمُون المُثَلَّجِ، والذُّرَةِ المُحَمَّصَةِ، وهُناكَ تِنِّينٌ يَقِفُ عَلى رَأْسِ هٰذِهِ العَرَبَةِ.

ـ «مَرْحَبًا... لَمْ أَرَ تِنِّينًا يَبِيعُ عَصيرَ اللَّيْمُونِ أَبَدًا».

ـ «ماذا يُمْكِنُني أَنْ أَفْعَلَ. لَقَدْ بِتُّ عاطِلًا عَنِ العَمَلِ».

ـ «لٰكِنْ... لِماذا؟».

ـ «نَحْنُ، نَسْلَ التِّنِّينِ، عَمِلْنا في الحِكاياتِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ. ورافَقْنا الأَبْطالَ في القِصَصِ، وخُضْنا مَعَهُمْ مُغامَراتٍ غَرِيبَةً. كانَتْ هٰذِهِ مِهْنَةَ أَبِي أَيْضًا، وَمِهْنَةَ جَدِّي وَكُلِّ أَجْدادي كَذٰلِكَ. إِلَّا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ الآنَ تَغَيَّرَ. كَيْفَ نَتَمَكَّنُ مِن إِيجادِ العَمَلِ إِنْ تَوَقَّفَتِ الحِكاياتُ والأَساطيرُ؟ هَلْ تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَتَخَيَّلِي العَمَلَ الَّذي يُمْكِنُ لِتِنِّينٍ مِثْلي أَنْ يَعْمَلَه؟ لِذا أُحاوِلُ كَسْبَ عَيْشي بِبَيْعِ عَصيرِ اللَّيْمُونِ».

نَظَرَ الأَوْلادُ إلى التِّنِّينِ بِإِعْجابٍ، لٰكِنَّهُ تَكَلَّمَ مَعَهُمْ بِفَظاظَةٍ:

ـ «إذا أَرَدْتُمُ العُبُورَ مِنْ هُنا فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَشْتَرُوا عَصِيرَ اللَّيْمُونِ».

«لٰكِنْ... لٰكِنْ... لٰكِنَّنا لا نَمْلِكُ النُّقُودَ»، أَجابَ أصوتاي.

ـ «في هٰذِهِ الحالَةِ، سَأَسْأَلُكُمْ بَعْضَ الأَسْئِلَةِ عَنِ النَّارِ. هَيَّا، أَخْبِرُوني: ما اسْمُ الطَّبَقَةِ المَوْجُودَةِ تَحتَ القِشْرَةِ الأَرْضِيَّةِ؟».

أَجابَتْ ساردونيا فَوْرًا:

ـ «طَبَقَةُ الوِشاحِ. وَعِنْدَما تَخْرُجُ الحِمَمُ المَوْجُودَةُ فيها، يَنْفَجِرُ البُرْكانُ».

ـ «أَحْسَنْتِ. أَرى أَنَّ مَعْلُوماتِكِ جَيِّدَةٌ. سَأَسْأَلُكِ سُؤالًا آخَرَ، إِذَنْ: ما هِيَ أَعْلى قِمَّةِ جَبَلٍ في بِلادِ أفهِما؟ هَلْ تَحْتاجِينَ إلى رَأْسِ الخَيْطِ؟ يُغَيِّرُ لَوْنَه كُلَّ يَوْمٍ. يَصيرُ يَوْمًا أَصْفَرَ، وَيَوْمًا أَخْضَرَ، وَيَوْمًا أَزْرَقَ».

حاوَلَتْ ساردونيا أَنْ تَذْكُرَ ما رَأَتْهُ حولَها في أَثْناءِ سَيْرِها. أَمَّا زَهْراءُ، فَسارَعَتْ إلى الجَوابِ:

ـ «قَوْسُ قُزَحٍ طَبْعًا».

كانَ حُلُمُ زَهْراءَ أَنْ تَتَسَلَّقَ ذاكَ الجَبَلَ عِنْدَما يُصْبِحُ لَوْنُهُ أَزْرَقَ.

لَمْ يَتَوقَّفِ التِّنِّينُ، وَأَكْمَلَ طَرْحَ الأَسْئِلَةِ:

ـ «حَسَنًا، هَلْ تَسْتَطيعُونَ طَبْخَ الذُّرَةِ مِنْ دُونِ أَنْ تُحْرِقُوا أَيْدِيَكُمْ».

نَظَرَ الأَوْلادُ، بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ. وَهَلْ هُناكَ أَمْرٌ أَسْهَلُ مِنْ هٰذا؟ أَجابَ الجَمِيعُ بِصَوْتٍ واحِدٍ:

ـ «بالتَّأْكِيدِ. . .».

«أَمامَكُمْ سِباقٌ مَعَ الزَّمَنِ. لَدَيْكُمْ ساعَةٌ واحِدَةٌ فَقَطْ لاجْتِيازِ هٰذِهِ التَّلَّةِ»، مُشِيرًا إِلى جِهَةٍ صَفْراءِ اللَّوْنِ.

أَمْعَنَ الأَوْلادُ في النَّظَرِ. ما رَأَوْهُ لَمْ يَكُنْ تَلَّةً مِنَ التِّلالِ المَعْهُودَةِ، بَلْ كانَ كَوْمَةً مِنْ حَبّاتِ الذُّرَةِ المُتَراكِمَةِ فَوْقَ بَعْضِها بَعْضًا. المِئاتُ، أَوْ حَتَّى آلافُ حَبّاتِ الذُّرَةِ. يا لَلْهَوْلِ!! تَنْظِيفُ حَبّاتِ الذُّرَةِ هٰذِهِ وطَبْخُها يَحْتاجانِ إلى ساعاتٍ طَوِيلَةٍ.

قالَتْ ساردونيا حينَها:

ـ «لَيْتَنا لَمْ نَخْتَرْ هٰذا الدَّرْبَ».

أَمَّا زَهْراءُ، فَقالَتْ:

ـ «طَريقُ النَّار صَعْبٌ جِدًّا. لِنَعُدْ. لا بُدَّ مِنْ أنَّ أَفْضَلَ طَرِيقٍ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذي لَمْ نُجَرِّبْهُ بَعْدُ».

أجابَ أصوتاي:

ـ «تَقْصُدينَ الهَواءَ؟!».

نَصَحَهُمُ التِّنِّينُ:

ـ «لا تَذْهَبوا. أَنْتُمْ تُخْطِئُونَ في اتِّخاذِ هٰذا القَرارِ. فإذا

اسْتَسْلَمْتُم فِي أَوَّلِ صُعُوبَةٍ مَرَرْتُمْ بِها، فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا التَّقَدُّمَ أَبَدًا، فَلَيْسَ هُناكَ ما لَيْسَ صَعْبًا في هٰذِهِ الحَياةِ».

لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ وَعادُوا إلى غابَةِ الخِياراتِ. جَرَّبوا الطُّرُقَ الثَّلاثَةَ مِنَ الأَرْبَعَةِ، والآنَ حانَ دَوْرُ طَريقِ الهَواءِ. في هٰذِهِ المَرَّةِ، كانوا مُتَأَكِّدِينَ مِنْ أَنَّهُمْ في الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ.

الهَواءُ

كانَ الدَّرْبُ الرَّابِعُ الَّذي اخْتَارُوهُ يَبْدُو هادِئًا، إذْ كانَتْ نَسَماتٌ خَفِيفَةٌ تُرافِقُهُمْ في رِحْلَتِهِمْ. وعَلى بُعْدِ مَسافَةٍ قَصِيرَةٍ، ظَهَرَتْ أَمامَهُمْ نَواعيرُ تَطيرُ فَوْقَها الطُّيورُ. كانَ أَحَدُ الطُّيورِ هٰذِهِ يُثِيرُ الاهْتِمامَ، بِحَيْثُ كانَ مِنْقارُهُ يَلْمَعُ مِثْلَ الذَّهَبِ. سَأَلَتْهُ ساردونيا مُسْتَغْرِبَةً:

ـ «مَنْ أَنْتَ؟!».

ـ «اِسْمِي: أُومِي، أَنا قادِمٌ مِنْ وَراءِ جِبالِ القافِ».

ـ «لٰكِنَّ هٰذا المَكانَ لَيْسَ حَقِيقِيًّا، وَإِنَّما هُوَ مَكانٌ أُسْطُورِيٌّ ذُكِرَ في الحِكاياتِ، لا غَيْرُ».

أَجابَها الطَّائِرُ، كَما أَجابَتْها سَمَكَةُ السَّلَمونِ مِنْ قَبْلُ:

ـ «لا تَسْتَهِيني بِهٰذِهِ الكَلِمَةِ».

ـ «حَسَنًا... ولِماذا أَنْتَ في جَبَلِ القافِ، وماذا تَفْعَلُ هُناكَ؟».

ـ «الطُّيورُ الَّتي تُشْبِهُني قَلِيلَةٌ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ. وَالكُلُّ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ بِغَرابَةٍ، وَيَهْمِسُونَ عِنْدَما يَرَوْنَني. أَحْيانًا يَرْمُونَنِي بالحِجارَةِ وَيَسْخَرونَ مِنِّي».

ـ «لٰكِنْ... لِماذا؟».

ـ «لِأَنَّني مُخْتَلِفٌ، وِلِهٰذا السَّبَبِ فَقَطْ، أَنا وَحِيدٌ».

لَمَعَتْ عَيْنا زَهْرَةِ الساردونيا، وقالَتْ لَهُ:

ـ «أَنا أَيْضًا مِثْلُكَ».

ـ «لا، أَبَدًا، فَأَنْتِ لا تَمْلِكينَ جَناحَيْنِ مُلَوَّنَيْنِ، ولا مِنْقارًا ذَهَبِيًّا».

ـ «نَعَمْ، رُبَّما لا أَمْلِكُ جَناحَيْنِ أَوْ مِنْقارًا، لٰكِنَّني أَعْرِفُ تَمامًا ما هُوَ الشُّعُورُ بالوَحْدَةِ. إِنَّ اسْمِي غَرِيبٌ جِدًّا، لِذا كُلُّ الأَوْلادِ في المَدْرَسَةِ يَسْخَرُونَ مِنِّي. لِهٰذا أَفْهَمُكَ جَيِّدًا».

ـ «إِذَنْ، هَيَّا ارْكَبوا عَلى ظَهْرِي لآخُذَكُم مِنْ هُنا».

بَعْدَ أَنْ طارُوا مَسافاتٍ، رَأَوْا طُيورًا أُخْرى. سَأَلَتْ ساردونيا:

ـ «مَنْ؟».

ـ «هَؤلاءِ أَيْضًا مِثْلُنا. كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَشْعُرُ بالوَحْدَةِ لِسَبَبٍ أَوْ لِآخَرَ».

ـ «هَلْ هٰذِهِ طُيُورُ البُومِ؟».

ـ «نَعَمْ، والجَمِيعُ يَبْغُضُها. يَقُولُونَ إِنَّها قَبِيحَةٌ. ما أَغْرَبَ طَبْعِ النَّاسِ، يُحِبُّونَ بَعْضَ الطُّيُورِ وَيَبْغُضونَ بَعْضَها، مَعَ أَنَّها جَمِيعًا مِنْ جِنْسٍ واحِدٍ، وَلِجَمِيعِها مَكانَةٌ في الطَّبِيعَةِ، لٰكِنَّ النَّاسَ لا يُفَكِّرُونَ عَلى هٰذا النَّحْوِ. يُحِبُّون الكَنارِيَّ وَيُبْدُونَ إِعْجابَهُمْ بالبُلْبُلِ، لٰكِنْ، لا أَحَدَ مِنْهُمْ يُحِبُّ البُومَةَ».

ـ «حَسَنًا... وَطُيُورُ البُومِ هٰذِهِ؟».

ـ «نَعَمْ، يُقالُ إِنَّها مَشْؤُومَةٌ».

ـ «أهاا... انْظُروا، وَذاكَ هُناكَ الغُرابُ».

ـ «الجَمِيعُ يَطْرُدُهُمْ».

ـ «هَلْ تَعيشُ هٰذِهِ الطُّيُورُ كُلُّها في جَبَلِ القافِ؟».

ـ «نَعَمْ... الطُّيُورُ الّتي لا يُرْغَبُ فيها هُنا، كُلُّها تَمْلِكُ أَعْشاشًا هُناكَ. سُمِّيَتْ هٰذِهِ الحَدِيقَةُ حَدِيقَةَ الطُّيُورِ الوَحِيدَةِ».

كَرَّرَتْ ساردونيا الكَلِمَةَ: «حَدِيقَةُ الطُّيُورِ الوَحِيدَةِ». لَقَدْ أَعْجَبَها هذا الوَصْفُ.

أَدْرَكَتْ ساردونيا حِينَها أَنَّهُ لَيْسَ الأَوْلادُ فَقَطْ الَّذِينَ يَشْعُرُونَ بِالوَحْدَةِ، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَغْلُبَ هٰذا الشُّعُورُ الطُّيُورَ والأَسْماكَ والتِّنِّينَ، وحتّى الساحِراتِ. كانَتْ حَياةُ الجَميعِ صَعْبَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَالكُلُّ لَهُ قِصَّةٌ وَحِكايَةٌ.

أَدْرَكَتْ ساردونيا أَيْضًا أَنَّه لَيسَ هُناكَ طَرِيقٌ سَهْلٌ فِي هٰذِهِ الحَياةِ. مَهْما حاوَلَ الإِنْسانُ أَنْ يَخْتارَ طَرِيقًا سَهْلًا، فَإِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُواجِهَ عَقَباتٍ وَصُعُوباتٍ. نَعَمْ، في كُلِّ دَرْبٍ مِنْ دُرُوبِ الحَياةِ امْتِحانٌ يَجِبُ اجْتِيازُهُ. في الحَقِيقَةِ، لا يُعْتَبَرُ هٰذا الأَمْرُ سَيِّئًا إلى هٰذا الحَدِّ. المُهِمُّ أَنْ تَقُومَ بما يَنْبَغِي لَكَ فِعْلُهُ عَلى أَكْمَلِ وَجْهٍ. كَما أَنَّه لا يَجِبُ الفَوْزُ دائِمًا، فإذا كانَ التَّعَلُّمُ نجاحًا، فَهٰذا يَعْنِي أَنَّ الإِنْسانَ مَعَ خَسارَتِهِ في شَيْءٍ ما، هُوَ ناجِحٌ فِي شَيْءٍ آخَرَ، وَهٰذا يَعْنِي أَنَّ وَراءَ كُلِّ خُسْرانٍ فَوْزًا وَنَجاحًا خَفِيَّيْنِ.

اِلْتَفَتَتْ إِلى أَصْدِقائِها، وقالَتْ:

ـ «يَكْفي. لا داعِيَ لِلتَّساؤُلِ: أَيُّ الطُّرُق هُوَ الأَصَحُّ أَوِ الأَسْهَلُ؟ إِنَّنا نُرْهِقُ أَنْفُسَنا بِلا جَدْوى. هَيَّا لِنُكْمِلْ دَرْبَنا بِعَزْمٍ وَإِصْرارٍ».

فَهِمَتْ زَهْراءُ وأصوتاي أَنَّها عَلى حَقٍّ، وَسَلَكُوا طَرِيقَهُمْ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ مَعَ طُيُورٍ بِأَلْوانٍ وَأَشْكالٍ مُخْتَلِفَةٍ.

كانَ عَلَيْهِمْ طَوالَ الطَّرِيقِ إِصْلاحُ مِئَاتِ دَوَّاراتِ الهَواءِ،

وفَكُّ آلافِ الطائِراتِ الوَرَقِيَّةِ الَّتِي تَداخَلَتْ خُيُوطُها، بَعْضُها بِبَعْضٍ، وجَمْعُ مِئاتِ أَرْياشِ الطُّيُورِ. قاموا بِكُلِّ ذٰلِكَ مِنْ دُونِ مَلَلٍ أَوْ تَعَبٍ.

رُبَّما كانَ طَريقُ الهَواءِ أَصْعَبَ الطُّرُقِ السَّابِقَةِ، لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَسْلِمُوا فِي هٰذِهِ المَرَّةِ.

أَخِيرًا، وَبَعْدَ ساعاتٍ مَضَتْ، بَدَتِ العاصِمَةُ الأَبْجَدِيَّةُ مِنْ بَعِيدٍ. صَفَّق الأَخَوانِ بَهْجَةً وَسُرُورًا. وَبَيْنَما هُما غارِقانِ في سَعادَتِهِما، لَعِبَ طَرِيقُ الهَواءِ مَعَهُمْ لُعْبَةً أَخِيرَةً.

هَبَّتْ رِياحٌ مُفاجِئَةٌ وَمُعاكِسَةٌ، فَقَطَعَتْ حِبالَ أَكْياسِ الأَفْكارِ الَّتي كانُوا يَحْمِلُونَها مَعَهُمْ. لَقَدْ تَساقَطَتِ الأَفْكارُ الَّتِي جَمَعَتْها زَهْراءُ، واحِدَةً واحِدَةً، وَتَناثَرَتْ مَعَ هُبُوبِ الرِّياحِ في كُلِّ مَكانٍ.

صَرَخَتْ زَهْراءُ:

ـ مُسْتَحِيلٌ...

عَلى الفَوْرِ، نَزَلوا إِلى الأَرْضِ، وحاوَلوا جَمْعَ الأَفْكارِ المُتَناثِرَةِ. لٰكِنَّ بَعْضَها بَقِيَ عالِقًا عَلى أَغْصانِ الأَشْجارِ، والبَعْضَ الآخَرَ سَقَطَ فِي أَعْماقِ الهاوِيَةِ، وَمِنْها ما بَقِيَ فَوْقَ الأَبْنِيَةِ. لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَجْمَعُوا إِلَّا قَبْضَةً مِنَ الأَفْكارِ، لٰكِنْ كانَ مُعْظَمُها مَكْسُورًا.

بَدَأَتْ زَهْراءُ بِالبُكاءِ: «خابَ أَمَلُنا».

عانَقَتْ ساردونيا صَدِيقَيها قائِلَةً:

ـ «أَرْجُوكُما لا تَحْزَنا».

ـ «كَيْفَ لا نَحْزَنُ وَكُلُّ الأَفْكارِ المُبْدِعَةِ صارَتْ هَبَاءً. هٰذا شَيْءٌ مُفْزِعٌ».

ـ «نَعَمْ، وَلٰكِنَّ مَصْدَرَ الإِبْداعِ مَعَكُمْ».

تَمالَكَتْ زَهْراءُ نَفْسَها.

وَأَكْمَلَتْ ساردونيا كَلامَها:

ـ «لا داعِيَ لِلذَّهابِ إلى أماكِنَ أُخرى لِجَمْعِ الأَفْكارِ. يُمْكِنُكُمْ إِيجادُ أَجْمَلِ الأَفْكارِ».

شَعَرَ أصوتاي بالقَلَقِ، وَلِذٰلِكَ بَدَأَ يَتَلَعْثَمُ مِنْ جديدٍ:

ـ «لا يُمْكِنُ... لا يَمْكِنُ... لا يُمْكِنُنا أَنْ نَقُومَ بِذٰلِكَ، فَنَحْنُ لَسْنا مُبدِعَيْنِ».

قالَتْ ساردونيا:

ـ «أَعطِيا كُلَّ الأَوْلادِ المَوْجُودِينَ في المَدِينَةِ وَرَقَةً وَقَلَمًا، ثُمَّ اتْرُكاهُمْ أَحْرارًا لِيَكْتُبوا ما يَرْغَبُونَ فِيهِ. لا تَكْسِرا هِمَّتَهُمْ بالقَوْلِ: أَنْتَ طِفَلٌ لا تَسْتَطِيعُ القِيامَ بِذٰلِك... أَوْ: أَنْتَ

صَغِيرٌ لا تَفْهَمُ هٰذا. . . وَإِنَّما اِشْرَحا لَهُمْ وَعَلِّماهُمْ وَحُثّاهُمْ. قُولا لَهُمْ: أَنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ القِيامَ بِهٰذا. شَجِّعاهُمْ عَلى تَأْلِيفِ القِصَصِ والحِكاياتِ، وَكِتابَةِ الأَشْعارِ، والرَّسْمِ. أَنا مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أَنَّهُ سَتَنْتُجُ مِنْهُم أَفْكارٌ رائِعَةٌ».

تَبادَلَ أصوتاي وَزَهْراءُ النَّظَراتِ. لَمْ يَقْتَنِعا بِالفِكْرَةِ تَمامًا، لٰكِنْ لَيْسَ فِي اليَدِ حِيلَةٌ، وَقَرَّرا أَنْ يُجَرِّبا الفِكْرَةَ.

اجْتَمَعَ آلافُ الأَوْلادِ في أَكْبَرِ مَيْدانٍ في العاصِمَةِ الأَبْجَدِيَّةِ. كانَ أَمامَ كُلِّ وَلَدٍ مِنْهُمْ دَفاتِرُ وَأَقْلامٌ وَمِمْحاةٌ وَأَلْوانٌ.

قامَ رَئِيسُ البَلَدِيَّةِ بِإِلْقاءِ كَلِمَتِهِ. قالَ: «أَحِبَّائِي الصِّغارَ، كَما تَعْرِفُونَ، نَحْنُ مُعَرَّضُونَ لِكارِثَةٍ كَبِيرَةٍ. لَقَدْ ذَهَبَتْ آلافُ الأَفْكارِ الَّتِي أَحْضَرْناها مِنْ خارِجِ البَلَدِ هَباءً».

تَعالَتْ أَصْواتُ الحُزْنِ والاسْتِياءِ مِنْ بَيْنَ الجُمُوعِ.

«لٰكِنْ، لَنْ نُعَكِّرَ صَفْوَنا، وَلَنْ نَسْتَسْلِمَ. لَقَدْ أَمَدَّتْنا صَدِيقَتُنا زَهْرَةُ السارْدونيا بالشَّجاعَةِ. هيّا يا صِغارِي، اكْتُبوا ما تَرْغَبُونَ فيهِ، وارْسُموا وَلَوِّنوا، ثُمَّ أَلِّفُوا قِصَصًا وحِكاياتٍ بِرُسُومِكُم. واكْتُبوا الأَشْعارَ والأَغانِيَ، وَجَهِّزوا الأَلْغازَ والنِّكاتِ. بِفَضْلِ إِبْداعاتِكُمْ وابْتِكاراتِكُمْ سَتَسْتَعِيدُ القارَّةُ الثّامِنَةُ نَشاطَها وَرُوحَها. أَنا أُؤْمِنُ بِهٰذا».

باشَرَ الأَوْلادُ العَمَلَ. بَعْضُهُمْ بَدَأَ بِهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ العَمَلَ عَلى مَحْمَلِ الجِدِّ. لِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَنْتُجُ أَفْكارٌ جَدِيدَةٌ في بِلادِ أفهِما. وَقَبْلَ حُلُولِ الظَّلامِ، كانَتْ مِئاتُ القِصَصِ والحِكاياتِ والأَشْعارِ والأَلْغازِ جاهِزَةً. وَطَبْعًا، كانَتْ ساردونيا وزَهْراءُ وأصوتاي يُساعِدُونَهُمْ أَيْضًا. وَكُلَّما سارَعُوا في العَمَلِ كانَتِ الأَنْهارُ تَمْتَلِئُ قَطْرَةً قَطْرَةً، وَالأَشْجارُ الجافَّةُ تَخْضَرُّ. في الحَقِيقَةِ، كانَ التَّغَيُّرُ بَطِيئًا، وَلٰكِنَّهُ كانَ بِشارَةَ خَيْرٍ.

اِلْتَفَتَتْ زَهْراءُ إِلى ساردونيا، وَشَكَرَتْها قائِلَةً:

ـ «لَوْلاكِ لَما اسْتَطَعْنا القِيامَ بِأَيِّ شَيْءٍ. لَمْ تَمَلِّي وَلَمْ تَكِلِّي. كُنْتِ رَفِيقَةَ سَفَرٍ رائِعَةً. أَشْكُرُكِ جَزِيلَ الشُّكْرِ».

ـ «لَقَدْ قُمْتُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ بِأَنْفُسِكُمْ. ما فَعَلْتُه أَنا دَعْمٌ لَكُمْ لَيْسَ إِلَّا، وَبِفَضْلِكُم تَعَلَّمْتُ أَشْياءَ كَثِيرَةً».

لَقَدْ تَأَثَّروا كَثِيرًا، وَحانَ وَقْتُ الفِراقِ. تَعانَقَ الأَصْدِقاءُ الثَّلاثَةُ، زَهْرَةُ الساردونيا وَزَهْراءُ وأصوتاي، وَعُيُونُهُمْ تَفيضُ دَمْعًا.

تَذَكَّرَتْ ساردونيا جَدَّتَها. لَقَدْ تَأَخَّرَتْ كَثِيرًا. ماذا لَوْ أَنَّ جَدَّتَها خَرَجَتْ لِلْبَحْثِ عَنْها؟ آخِرُ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ هُوَ أَنْ تُحْزِنَ تِلْكَ المَرْأَةَ العَجُوزَ. صاحَتْ ساردونيا:

ـ «يا إِلٰهي... لَقَدْ تَأَخَّرْتُ. عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ قَبْلَ مُغادَرَةِ الضُّيُوفِ المَنْزِلَ».

أَجابَتْها زَهْراءُ:

ـ «لا تَقْلَقي، سَأُعْطيكِ أَسْرَعَ حِصانٍ فِي البَلَدِ، وَمَعَهُ سَأُهْدِيكِ كُرَةً سِحْرِيَّةً وسِوارًا، كَما في أَيْدِينا تَمامًا. وَبِفَضْلِ هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ تَسْتَطِيعِينَ الذَّهابَ إِلى كُلِّ مَكانٍ في طَرْفَةِ عَيْنٍ. وَلا تَنْسَيْ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَبْقى الكُرَةُ بَيْنَ الكُتُبِ لِتُحافِظَ عَلى طاقَتِها».

ابْتَسَمَتْ ساردونيا... كانَتْ سَتَشْتاقُ إلى السَّاحِراتِ والتِّنِّيناتِ... والقارَّةِ الثَّامِنَةِ بِأَكْمَلِها.

دقّاتُ الساعةِ

مَرَّ حِصانٌ في سَماءِ الضَّاحِيَةِ بِسُرْعَةِ البَرْقِ. قالَتْ ساردونيا:

«عَلَيَّ أَنْ أَمُرَّ إلى مَكانٍ ما أَوَّلًا»، ثُمَّ صَفَّقَتْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ.

هَزَّ الحِصانُ الطَّائِرُ رَأْسَهُ بِأَنْ حَسَنًا، وَحَطَّ بِهُدُوءٍ.

دَخَلَتْ ساردونيا قِرْطاسِيَّةَ قَوْسِ قُزَحٍ. كانَتْ قَلِقَةً، تُريدُ أن تَعْرِفَ ما الَّذي حَدَثَ لِلْكُرَةِ السِّحْرِيَّةِ.

كانَ السَّيِّدُ ناظِمٌ جالِسًا يَقْرَأُ كِتابًا، وَعِنْدَما رَآها تَعَجَّبَ.

ـ «مَرْحَبًا، هَلْ عَرَفْتَني يا سَيِّدي. لَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ سابقًا».

أجابَها السَّيِّدُ ناظِمٌ:

ـ «نَعَمْ، عَرَفْتُك طَبْعًا. لَقَدْ طَلَبْتُمْ كِتابًا، وَغادَرْتُمُ المَكْتَبَةَ مِنْ دُونِ انْتِظارٍ».

دُهِشَتْ ساردونيا عِنْدَما خاطَبَها بـ: أَنْتُمْ:

ـ «هَلْ رَأَيْتَ صَدِيقَيَّ؟».

أَجابَها السَّيِّدُ ناظِمٌ، كما كَأَنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْها لُغْزًا:

ـ «رُبَّما رَأَيْتُهُما، وَرُبَّما لا».

ـ «لَقَدْ نَسِيتُ كُرَةً هُنا في ذٰلِكَ اليَوْمِ، أَقْصِدُ نَسِينا. هَلْ وَجَدْتَها؟ لَقَدْ كانَتْ عَلى أَحَدِ الرُّفُوفِ هُنا».

لَمْ يُجِبِ السَّيِّدُ ناظِمٌ عَلى الفَوْرِ، بَلْ أَغْلَقَ الكِتابَ وَوَضَعَهُ جانِبًا، ثُمَّ خَلَعَ نَظّارَتَهُ، وَأَجابَها بِشَكْلٍ غامِضٍ:

ـ «كُرَةٌ... نَعَمْ».

ـ «هَلْ يُمْكِنُنِي اسْتِعادَتُها؟».

ـ «لا... مَعَ الأَسَفِ».

تَغَيَّرَ وَجْهُ ساردونيا، فَلَمْ تُعْطِ أَيَّ مَعْنًى لِهٰذا الجَوابِ.

ـ «لَسْتُ أَنا مَنْ وَجَدَ الكُرَةَ، وَإِنَّما ابْنِي، وَهُوَ لَيْسَ

مِثْلِي؛ هُوَ لا يُحِبُّ القِراءَةَ. لَوْ كُنْتُ أَنا مَن وَجَدَها لَما أَخَذْتُها، وَإِنَّما لَتَرَكْتُها بَيْنَ الكُتُبِ وَانْتَظَرْتُ عَوْدَتَكُمْ لِتَأْخُذُوها».

ـ «حَسَنًا... وَماذا فَعَلَ ابْنُك؟».

طَأْطَأَ السَّيِّدُ ناظِمٌ رَأْسَه وقالَ:

ـ «لَقَدْ أَهْداها إِلى خَطِيبَتِه دنِيزَ».

ـ «يا وَيْلِي... لَقَدْ ضاعَتِ الكُرَةُ، إِذَنْ».

ـ «ومَنْ يَدْرِي... دنِيزُ فَتاةٌ عاقِلَةٌ، وَتُحِبُّ القِراءَةَ كَثِيرًا. هِيَ لَيْسَتْ مِثْلَ ابْنِي المُشاكِسِ. يُمْكِنُها اكْتِشافُ بِلادِ الأَساطِيرِ والحِكاياتِ والقِصَصِ».

فَزِعَتْ ساردونيا وَسَأَلَتْه مُسْتَغْرِبَةً:

ـ «لٰكِنْ، كَيْفَ؟ كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ؟».

ابْتَسَمَ السَّيِّدُ ناظِمٌ ابْتِسامَةَ وِدٍّ وَمَحَبَّةٍ، وَقالَ:

ـ «اسْمَعِي... سَأَقُصُّ عَلَيْكِ قِصَّةً: كان هُناكَ فَتًى مُحِبٌّ لِقِراءَةِ الكُتُبِ، يَعِيشُ في هٰذِهِ الضَّاحِيَةِ. لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِمَّنْ حَوْلَهُ يُحِبُّ قِراءَةَ الكُتُبِ مِثْلَه، سَواءٌ كَانَ مِنْ عائِلَتِه أَوْ أَقارِبِهِ، أَوْ حَتَّى أُمَّه وَأَباه. وَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدُهُمْ شَغَفَه الشَّدِيدَ هٰذا».

كانَتْ ساردونيا تَسْتَمِعُ إِلَيْهِ فِي لَهْفَةٍ.

«لَمْ يُسانِدْهُ أَبوه أَبَدًا في حُبِّهِ الكُتُبَ. وَبَدَلًا مِنْ ذٰلِكَ، قالَ لَهُ: يَكْفِي... لا أُرِيدُ أَنْ أرى كِتابًا بَيْنَ يَدَيْكَ بَعْدَ اليَوْم... القِراءَةُ مَمْنُوعَةٌ مِنَ اليَوْم فَصاعِدًا. بَدَأَ الفَتى بِالعَمَلِ في الحَقْلِ، لٰكِنَّ عَقْلَهُ كانَ مَشْغُولًا بِالكُتُبِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّام، وَبَيْنَما كانَ يَحْرُثُ الأَرْضَ، وَجَدَ كُرَةً سِحْرِيَّةً عَلَيْها حِجارَةٌ مَصْفُوفَةٌ. تَناوَلَها وَأَخَذَها إِلَى البَيْتِ. لاحَظَ أَنَّ الكُرَةَ بَدَأَتْ تَتَغَيَّرُ بَعْدَ أَنْ وَضَعَها بَيْنَ الكُتُبِ. تَحَمَّسَ لِهٰذا. كانَتِ الكُرَةُ تُخْبِرُهُ بِشَيْءٍ ما، وَكَأَنَّها تُحَدِّثُهُ بِأَنَّ هُناكَ عالَمًا آخَرَ... كَبُرَ هٰذا الفَتى، وَبَعْدَ أَنْ قامَ بِخِدْمَةِ العَلَم عادَ إلى بَلْدَتِهِ، وَفَتَحَ قُرْطاسِيَّةً وَمَكْتَبَةً».

أَمْسَكَتْ ساردونيا أَنْفاسَها:

ـ «هَلْ ذاكَ الفَتى هُوَ أَنْتَ؟».

هَزَّ السَّيِّدُ ناظِمٌ رَأْسَهُ، وَقالَ:

ـ «نَعَمْ، أَنا».

ـ «حَسَنًا، أَيْنَ الكُرَةُ الَّتِي وَجَدْتَها؟».

فَتَحَ السَّيِّدُ ناظِمٌ دُرْجَهُ وَأَخْرَجَ مِنْهُ مُجَسَّمًا. لَمْ تُصَدِّقْ زَهْرَةُ الساردونيا عَيْنَيْها. المُجَسَّمُ يُشْبِهُ كُرَتَها كَثيرًا، إِلَّا أَنَّهُ كانَ أَقْدَمَ، وباهِتًا.

قَدَّمَ السَّيِّدُ ناظِمٌ الكُرَةَ إلى ساردونيا:

ـ «لِتَكُنْ لَكِ... فَأَنا لا أَمْلِكُ سِوارًا. هٰذِهُ الكُرَةُ مُناسِبَةٌ لَكِ».

ـ «لٰكِنِّي أَمْلِكُ كُرَةً».

ـ «هَلْ هٰذا صَحِيحٌ... لِيَكُنْ. رُبَّما تُقَدِّمِينَها هَدِيَّةً إلى أَحَدِهِمْ في يَوْمٍ ما. فَهُناك كَثِيرٌ مِنَ الأَوْلادِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ وَيَسْأَلُونَ كَثِيرًا مِثْلَكِ».

ـ «نَعَمْ، لٰكِنْ...».

ـ «أَرْجُو أَنْ تَأْخُذِيها، لَقَدْ كَبُرْتُ في السِّنِّ، وَهِيَ تَلِيقُ بِكِ أَكْثَرَ».

ـ «شُكْرًا لَكَ يا سَيِّدي».

ـ «لا تَنْسَيْ أَنَّ مُحِبِّي الكُتُبِ في كُلِّ مَكان. لا فَرْقَ بَيْنَ الغَنِيِّ والفَقِيرِ، وَلا بَيْنَ القَرَوِيِّ وَالمَدَنِيِّ، ولا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ، أَوْ حَتَّى بَيْنَ العَجُوزِ والشابِّ. سَتَتَعَرَّفِينَ إِلَيْهِمْ على الفَوْرِ. هُمْ مُنْغَلِقُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ قَلِيلًا، لٰكِنَّ خَيالَهُمْ واسِعٌ. في كثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ، لا يَفْهَمُهُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ. لِذٰلِكَ تَجِدِينَهُمْ وَحِيدِينَ أَحْيانًا. هُمْ يَرْوُونَ أَجْمَلَ الحِكاياتِ، وَهُناكَ نُقْطَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُمْ: مُعْظَمُهُمْ وَجَدوا الكُرَةَ السِّحْرِيَّةَ،

أَوْ أَنَّهم سَيَجِدُونَها، مِثْلَكِ تَمامًا».

فِي تِلْكَ الأَثْناءِ، دَخَلَ زَبُونانِ المَكْتَبَةَ، أُمٌّ وَوَلَدُها، يُمْسِكُ أَحَدُهما بِيَدِ الآخَرِ:

ـ «نُرِيدُ دَفْتَرًا مُسَطَّرًا، وَعُلْبَةَ أَقْلامٍ».

غَمَزَ السَّيِّدُ ناظِمٌ ساردونيا الَّتِي كانَتْ تَقِفُ جانِبًا، وَقالَ:

ـ «بِالتَّأْكِيدِ».

أَخَذَتْ زَهْرَةُ الساردونيا الكُرَةَ بِهُدُوءٍ، وَخَرَجَتْ مِنَ المَكْتَبَةِ. طَبْعًا لَمْ تُهْمِلْ تَوْدِيعَ الرَّجُلِ العَجُوزِ قَبْلَ المُغادَرَةِ، وَلَوَّحَتْ بِيَدِها.

هَمَسَ السَّيِّدُ ناظِمٌ:

ـ «مَعَ السَّلامَةِ...».

عِنْدَما وَصَلَتْ إِلى بَيْتِ جَدَّتِها، دَخَلَتْ مِنَ النَّافِذَةِ المَفْتُوحَةِ. كانَتِ القِطَّةُ تَغُطُّ فِي النَّوْمِ عَلى الأَرِيكَةِ المَوْجُودَةِ فِي الغُرْفَةِ. واضِحٌ أَنَّ الجِيرانَ قَدْ رَحَلُوا، فَقَدِ انْقَطَعَتِ الأَصْواتُ، وكانَ الصَّمْتُ يَعُمُّ المَكانَ.

نادَتِ السَّيِّدَةُ كَرِيمَةُ:

ـ «زَهْرَةَ الساردونيا، هَيَّا تَعالَيْ، مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّك غارِقَةٌ

في قِراءَةِ كِتابٍ ما. أَيْنَ أنتِ؟ لِماذا لا تُجيبينَني؟»

أَسْرَعَتْ ساردونيا إلى الصَّالَةِ، فَوَجَدَتْ جَدَّتَها تَجْلِسُ عَلى الأَرِيكَةِ مُتَعَبَةً، وَقَدْ مَدَّتِ المَرْأَةُ العَجُوزُ قَدَمَيْها وَرَفَعَتْهُما عَلى الطَّاوِلَةِ الصَّغِيرَةِ.

سَأَلَتْها ساردونيا بلُطْفٍ:

ـ «كَيْفَ مَضى يَوْمُكُمْ؟ هَلْ كانَ جَمِيلًا؟».

ـ «يا إلٰهي، لَقَدْ تَعِبْتُ كَثِيرًا. انْتَفَخَ رَأْسِي مِنَ الضَّجِيجِ. لَقَدْ أَصْبَحَ مِثْلَ الطَّبْلِ، لٰكِنَّنا اسْتَمْتَعْنا في أَحادِيثِنا مَعَ الجيرانِ. وَأَنْتِ، ماذا فَعَلْتِ؟»

ابْتَسَمَتْ ساردونيا:

ـ «أَنا؟ لَقَدْ مَضى جَميلًا... بَلْ كانَ رائِعًا».

العَوْدَةُ إلى المَنْزِلِ

بَعْدَ مُضِيِّ أُسْبُوعٍ واحِدٍ، كانَتِ السَّيِّدَةُ كَرِيمَةُ والسَّيِّدُ كامِلٌ جالِسَيْنِ فِي الصَّالَةِ يُشاهِدانِ التِّلْفازَ، والقِطَّةُ الكَسُولَةُ تَنامُ على الأَرِيكَةِ. . . قُرِعَ الجَرَسُ. كانَتْ ساردونيا جَلَسَتْ عَلى كُرْسِيٍّ خَلْفَ الطَّاوِلَةِ تَرْسُمُ القارَّةَ الثَّامِنَةَ. فإذا رَسَمَتْ ما رَأَتْهُ أَوْ كَتَبَتْهُ فَلَنْ تَنْسى ذاكَ المَكانَ أَبَدًا.

أَسْرَعَتْ ساردونيا إِلى فَتْحِ البابِ. وَبَعْدَ خَمْسِ ثَوانٍ، صاحَتْ بِكُلِّ سُرُورٍ. كانَ والِداها على البابِ.

ـ «أَبِي. . . أُمِّي. . .».

عانَقَ السَّيِّدُ حَسَنُ وَالسَّيِّدَةُ خَيالُ ابْنَتَهُما بِكُلِّ شَوْقٍ. نَظَرَتْ ساردونيا إِلى أَبِيها وَسَأَلَتْهُ:

ـ «هَلْ أَنْتَ بِخَيْرٍ؟ كَيْفَ كانَتْ عَمَلِيَّتُكَ الجِراحِيَّةُ».

اسْتَغْرَبَ السَّيِّدُ حَسَنْ لِلَحْظَةٍ، لٰكِنَّهُ ابْتَسَمَ وَقالَ:

ـ «كُنْتِ تَعْلَمِينَ، إِذَنْ... كانَتِ العَمَلِيَّةُ ناجِحَةً لِلْغايَةِ. الحَمْدُ للهِ».

قَفَزَتْ ساردونيا في الهَواءِ لِشِدَّةِ فَرَحِها.

قالَتْ لَها أُمُّها:

ـ «لا تَحْزَني مِنّا لأَنَّنا لَمْ نُخْبِرْك. لَمْ نَكُنْ نُرِيدُ أَنْ نُقْلِقَكِ».

ـ «أَعْرِفُ ذٰلِكَ».

اِجْتَمَعَتِ العائِلَةُ وَتَبادَلَ أَفْرادُها الأَحادِيث حَتّى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيْلِ. نامَتْ ساردونيا فِي حُضْنَيْ أَبِيها وَأُمِّها كَما كانَتْ تَفْعَلُ عِنْدَما كانَتْ صَغِيرَةً، عَلى الرَّغمِ مِنْ أَنَّها كَبُرَتْ عَلى فِعْلِ هٰذا...

وفي اليَوْمِ التَّالي، وفي أَثْناءِ مُغادَرَتِها المَكانَ، نَظَرَتْ إلى ما حَوْلَها بِكُلِّ حُبٍّ. ما أَكْثَرَ المُغامَراتِ الَّتِي عاشَتْها في هٰذِهِ الضَّاحِيَةِ الصَّغِيرَةِ وَالهادِئَةِ. لَمْ تَكُنْ لِتَتَأَكَّدَ: هَلْ ما رَأَتْهُ كانَ حَقِيقَةً، أَمْ خَيالًا؟ رُبَّما كانَ كُلُّ ذٰلِكَ مُجَرَّدَ رُؤْيا.

حِينَما ذَهَبَتْ إِلى المَدْرَسَةِ اجْتَمَعَ أَصْدَقاؤُها حَوْلَها:

ـ «أَيْنَ كُنْتِ؟».

ـ «هَيَّا أَخْبِرينا: لِماذا كُنْتِ غائِبَةً؟».

تَوَقَّفَتْ ساردونيا للحظاتٍ. كانَ صَوْتٌ في داخِلِها يُحَدِّثُها بِأَنَّ أَصْدَقاءَها قَدِ اشْتاقُوا إِلَيْها. يا لَلْغَرابَةِ! كانُوا يُعامِلُونَها بِسُوءٍ فِي الماضِي. حَتَّى أَصْدِقاؤُها مِنَ الأَوْلادِ المُشاكِسِينَ سُرُّوا عِنْدَما رَأَوْها.

هَلْ يُصَدِّقُونَها إِنْ حَدَّثَتْهُم بِما رَأَتْ؟ وَأَنَّها تَجوَّلَتْ مَعَ أَصْدِقاءَ جُدُدٍ في غابَةٍ سِحْرِيَّةٍ على مَتْنِ حِصانَيْنِ طائِرَيْنِ. ماذا سَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّها أَخْبَرَتْهُمْ بِأَنَّها انْتَقَلَتْ مِنْ مُغامَرَةٍ إِلى أُخرى وَهِيَ تُحاوِلُ العُبُورَ عَبْرَ طُرُقِ التُّرابِ والماءِ والنارِ والهَواءِ؟ كانَتِ الحَياةُ اليَوْمِيَّةُ مُمِلَّةً، أَمَّا الحكاياتُ والقِصَصُ والأَساطِيرُ وعالَمُ الأَحْلامِ، فَقَدْ كانَتْ أَكْثَرَ مُتْعَةً. فَإِذا كانَ يُوجَدُ هُنا عَشَرَةُ أَلْوانٍ، فَهُناكَ آلافُ الأَلْوانِ. كانَتْ فَتاةً عادِيَّةً في حَياتِها اليَوْمِيَّةِ، لٰكِنَّها كانَتْ بَطَلَةً في القارَّةِ الثَّامِنَةِ.

هَلْ سَيَفْهَمُونَها إِنْ شَرَحَتْ لَهُمْ كُلَّ هٰذا؟

أَمْعَنَتِ النَّظَرِ في التَّلامِيذِ المَوْجُودِينَ فِي الصَّفِّ: بَعْضُهُمْ سَمِينٌ والبَعْضُ الآخَرُ نَحِيفٌ، وَبَعْضُهُمْ وَحِيدٌ، وَالآخَرُونَ تُعَساءُ؛ بَعْضُهُمْ لَدَيْهِ مُشْكِلاتٌ في بَيْتِهِ، والبَعْضُ الآنَ غَيْرُ ناجِحٍ فِي دُرُوسِهِ؛ بَعْضُهُمْ مَنْ يَرى نَفْسَهُ قَبِيحًا، وَآخَرُونَ يَغارُونَ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ البَعْضُ يَقْرِضُ أَظْفارَه. مِنْهُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُصْبِحَ طَبِيبًا، وَثانٍ يَوَدُّ أَنْ يَصِيرَ مُهَنْدِسًا، وَآخَرُ يُرِيدُ

أَنْ يَكُونَ مِعْمارِيًّا. كانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ تُنادِيهُمْ جَمِيعًا:

ـ هُناكَ مَكانٌ لِلْجَمِيعِ في الكُتُبِ.

أَقامَتْ ساردونيا حَمْلَةَ الحِفاظِ عَلى الطَّبيعَةِ والبِيئَةِ في ذاكَ الأُسْبُوعِ. وَكما أَنَّ بِلادَ أفهِما تَجِفُّ لِأَنَّ النَّاسَ تَرَكوا الأَحْلامَ، فَالعالَمُ يفسُدُ كَذٰلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ تَرَكُوا الاهْتِمامَ بِهِ.

في البِدايَةِ، لَمْ يَهْتَمَّ بِالمَوْضُوعِ إِلَّا عِدَّةُ تَلامِيذَ. لٰكِنْ، فيما بَعْدُ، شارَكَ تَلاميذُ آخَرُونَ في هٰذِهِ الحَمْلَةِ. أَمَّا في آخِرِ السَّنَةِ، فَكانَ جَمِيعُ الطُّلَّاب قَدْ شارَكُوا في هٰذِهِ الحَمْلَةِ، فَكَبُرَتْ حَتَّى صارَتْ عَمَلًا ناجِحًا بَيْنَ المَدارِسِ.

ما زالَ بَعْضُ الأَوْلادِ يَسْخَرُونَ مِنِ اسْمِها، إِلَّا أَنَّ عَدَدَهُمْ يُعْتَبَرُ قَلِيلًا عَمّا كان عَلَيْهِ سابِقًا. فَعِنْدَما رَأى التَّلامِيذُ أَنَّها لا تُبالي بِكَلامِهِمْ أَوِ اسْتِهْزائِهِمْ، أَقْلَعَ عَنِ السُّخْرِيَةِ مِنْها حتَّى أَكْثَرُ الأَوْلادِ مُشاكَسَةً.

كانَ الجَلاءُ المَدْرَسِيُّ مُمْتازًا في تِلْكَ السَّنَةِ. فَقَدْ ارْتَفَعَتْ دَرَجاتُها عِنْدَما لَمْ تَعُدْ تَخافُ مِنْ مادَّةِ الحِسابِ. صارَ لَدَيْها أَصْدِقاءُ جُدُدٌ. وَالأَهَمُّ مِنْ هٰذا وَذاكَ أَنَّها بَدَأَتْ تُحِبُّ نَفْسَها. كَما كانَتْ بَيْنَ الحِينِ والآخَرِ تُلْقِي نَظْرَةً عَلى الكُرَةِ السِّحْرِيَّةِ، وَتُفَكِّرُ فِيما يَفْعَلُهُ صَديقاها هُناك.

كانَتْ سَتُحدِّثُ الجَميعَ يَوْمًا عَنِ الرِّحْلَةِ المُذْهِلَةِ الَّتِي

قامَتْ بِها. كانَتْ مُصِرَّةً عَلى ذٰلِكَ. وكانَ هٰذا الأَمْرُ سِرًّا، فَلَمْ تُخْبِرْ أَحَدًا بِالقارَّةِ الثَّامِنَةِ، إِلَّا شَخصًا واحِدًا هُوَ مُذَكِّرَتُها...

«عَزِيزَتِي الشَّجَرَةَ العَظِيمَةَ...

كانَتِ العَوْدَةُ إِلى المَدْرَسَةِ بَعْدَ التَّجَوُّلِ فِي بِلادِ الأَساطيرِ والحِكاياتِ غَرِيبَةً جِدًّا. كُلُّ شَيْءٍ صارَ يَبْدُو مُخْتَلِفًا، لِأَنَّنِي تَغَيَّرتُ. يَعْنِي أَنَّنِي تَغَيَّرتُ مِنْ دُونِ أَنْ أَشْعُرَ بِذٰلِكَ. لَمْ أَعُدْ أَحْزَنُ مِنَ الأَشْياءِ الَّتِي كانَتْ تُحْزِنُنِي فِيما مَضى.

أَعْرِفُ أَنَّ هُناكَ مَكانًا آخَرَ؛ بِلادًا أَجْمَلَ مِنْ هٰذِهِ البِلادِ...

أَنا الآنَ أَجْتَهِدُ فِي دُرُوسِي، وأُمْضِي وَقْتًا أَطْوَلَ مَعَ أَصْدِقائِي، وَأَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الكُتُبِ. وَكُلَّما قَرَأْتُ حِكايَةً، أَوْ بَنَيْتُ حُلُمًا، أَوْ أَلَّفْتُ قِصَّةً، أَوْ كَتَبْتُ شِعْرًا، تَخْضَرُّ شَجَرَةٌ في القارَّةِ الثَّامِنَةِ، وتَتَفَتَّحُ زَهْرَةٌ، وَتَجْرِي المِياهُ في الأَنْهارِ الجافَّةِ، ويُغَرِّدُ عُصْفُورٌ...

حَتّى لَوْ لَمْ يُصَدِّقْ أَحَدٌ هٰذا، فَأَنا أَعْتَقِدُ أَنَّ هٰذا الأَمْرَ مُمْكِنٌ.

زَهْرَةُ السارِدونيا (الفَتاةُ الَّتِي تُحِبُّ اسْمَها)...».

هَيَّا، اكْتُبْ حِكايَةً مُتَعَلِّقَةً باسْمِكَ... مكتبة



ساردونيا صبيّة ذكيّة وخلّاقة، لكنّها تُعاني مشكلةً واحدة. أنَّها تكره اسمَها، الذي بسببه يَسْخر منها تلاميذُ صفِّها، فتصبح الكتبُ والحكاياتُ أصدقاءها الأوفياء.

ذات يوم، تَعْثر الفتاةُ في المكتبة على مجسَّم للكرة الأرضيّة، فتتعرَّف من خلاله على صديقين غريبي الأطوار، من القارّة الثامنة. والقارّة الثامنة هذه تستورد الخيال، وتصدِّر الحكايات؛ لكنَّها تُصاب بالجفاف بسبب تراجع القراءة وقلّة الخيال. فتتبنَّى ساردونيا وصديقاها إنقاذَ الخيال والقارّة الثامنة.

أليف شافاك: روائيّة وناشطة تركيّة. صدر لها عن دار الآداب: **قواعدُ العشق الأربعون، لقيطة إسطنبول، شرف، قصر الحلوى، الفتى المتيَّم والمعلِّم، حليب أسود، بنات حوَّاء الثلاث.**

www.elifshafak.com

دار الآداب